عـــود النـــد

مجلة ثقافية فصلية

ISSN 1756-4212

الناشر: د. عدلي الهواري

العدد 18 :: خريف 2020

Charles Pearce

المحتويات

هدية العدد: كتاب رقمي 4
المجلات الثقافية الرقمية

د. عدلي الهواري 5
التعليم الرقمي عن بعد

هيئة التحرير 8
نازك ضمرة وداعا

د. لطيفة حليم 11
لقاء آلي أدواتي: الزربية

يوسف بونيني.. 15
الأب جلّاب والأم دولاب

وهيبة قوية 19
حكاية باب

نوزاد جعدان 26
ودفنتُها في القمر

فنار عبد الغني.. 30
الخاتم المبهر

زكي شيرخان.. 33
دقيقة صمت

هبة الأغا.. 36
موجة أخيرة لغزة

أحمد الوارث 38
السطح والقرار

إصدارات جديدة: خالد سامح المجالي 42
فصل من رواية الهامش

مختارات: محمود درويش 52
أنقذونا من هذا الشعر

عن لوحة الغلاف 55
الفنان تشارلز بيرس

مختارات: عدلي الهواري 56
اتحاد الطلبة المغدور

هدية العدد: كتاب رقمي

المجلات الثقافية الرقمية

تجربة عود الند: 2006-2019

بمناسبة بدء العام الدراسي الجديد، 2020/2021، يسر هيئة تحرير مجلة «عود الند» الثقافية أن تهدي الكاتبات والكتاب والقارئات والقراء نسخة رقمية من كتاب ناشر المجلة، د. عدلي الهواري، الذي يوثق فيه تجربة نشر «عود الند» منذ كانت فكرة سبقت بسنوات الصدور في عام 2006، وحتى نهاية شهر آذار (مارس) 2019.

للحصول على نسخة من الكتاب استخدم/ي الرابط أدناه. يجب اتباع خطوات شبيهة بالشراء من موقع إلكتروني، وهذا يشمل كتابة الاسم والعنوان الإلكتروني والمدينة. وتتوج الخطوات بالحصول على خيار لتحميل الكتاب.

https://www.oudnad.net/books

د. عدلي الهواري

كلمة العدد الفصلي الثامن عشر

التعليم الرقمي عن بعد

يصدر هذا العدد من مجلة «عود الند الثقافية (الفصلي 18) متزامنا مع بدء عام دارسي جديد (2020/2021)، المتزامن بدوره مع عودة انتشار الإصابة بفيروس كورونا بعد فترة من السيطرة عليه، وتخفيف الإجراءات التي فرضت لتحقيق ذلك، وشملت إغلاق المدارس واللجوء إلى التعليم عن بعد.

الجدل حول التعليم عن بعد نشأ عندما أغلقت المدارس، وارتكز على محورين، أولهما المفاضلة بين التعليم وجهها لوجه وبين التعليم عن بعد، وثانيهما التفاوت في الوسائل الإلكترونية المستخدمة، إذ شملت تطبيقات التواصل، مثل واتساب، وبث دروس مصورة عبر التلفزيون. والقليل من المؤسسات التعليمية على ما بدا كانت مستعدة للتعليم عن بعد باستخدام منصات رقمية خاصة بذلك.

ذكّرني الجدل حول التعليم الرقمي عن بعد بآخر نشأ وقت ظهور الكتاب الرقمي، فقد برزت ظاهرة تقديس الكتاب الورقي، واعتباره تلقائيا مقياسا للجودة، والتقليل من شأن الكتاب الرقمي. افتقر النقاش للموضوعية والدقة،

فكل كتاب ورقي من الفئة التي توصف بأمهات الكتاب وصدر قبل مئات السنين يمكن تصويره وتحويله إلى صيغة رقمية، وفعل ذلك لا يؤثر سلبا على الكتاب وقيمته، بل يزوده بجناحين يمكناه من الانتقال إلى أي مكان في العالم بسرعة مذهلة.

وأغفل الجدل حول الكتاب بصيغتيه الورقية والرقمية أمورا لا تخفى على كل باحث وهي عدم توفر عدد كاف من المكتبات في الدول أو المدن، وخاصة الدول النامية، وعدم إمكانية توفر كل الكتب في كل المكتبات، وكذلك كلفة شراء كل كتاب يحتاجه الطالب والباحث.

وعندما اكتسح العالم وباء كورونا، وأجبر الدول على إغلاق دور العبادة والمكتبات والمحلات التي لا تبيع الأدوية والمواد الغذائية، أصبح من السذاجة مواصلة الجدل حول مزايا الكتاب الورقي مقارنة بالرقمي. الكتب في المكتبات المغلقة صارت مثل الجثث في القبور.

ويبدو أننا في الدول العربية نحب تحويل القضايا المعقدة إلى ثنائية متضادة، ورؤية الأمور بالأسود والأبيض وعدم الاعتراف بوجود الكثير من الدرجات الرمادية بينهما.

للتعليم الرقمي عيوب كثيرة، وهو غير مناسب في سياقات متعددة، مثل تعليم الصغار، وفي التخصصات العملية التطبيقية. ولكن نطاق التعليم والبحث العلمي أوسع من ذلك، فهناك الكثير من المجالات التي لا تحتاج إلى مختبر. دارسو اللغات والتاريخ والعلوم السياسية والإنسانية وغير ذلك ليسوا بحاجة إلى مختبرات، بل تعتمد دراستهم على الكتب.

وبعض التخصصات كما نعلم عليها إقبال شديد بحيث تكون قاعات المحاضرات مليئة بالطلبة. وفي مثل هذه الحالات لا يستطيع الأستاذ أن يعطي اهتماما لكل الحاضرين. وبالتالي الحديث عن ميزة التعليم وجها لوجه صحيحة نسبيا، ولكنها تعتمد على عدد الطلبة في غرفة الصف أو قاعة المحاضرات.

كشف وباء كورونا أن الدول العربية غير مهيأة للتعليم عن بعد نتيجة

عدم وجود البنية التحية اللازمة لذلك، بما في ذلك توفر أجهزة الحاسوب لدى كل طالب، وخدمة إنترنت يعتمد عليها في التواصل والمتابعة. هذا الأمر يحل بتخصيص المزيد من الموارد لبناء بنية تحتية تلبّي حاجة البلد ليس في مجال التعليم فقط، بل في مجالات أخرى، فأثناء فترة الحجر الصحي في النصف الأول من عام 2020 زاد الاعتماد على الإنترنت لشراء الاحتياجات من المواد الغذائية والأدوية، وكذلك للتواصل مع الأهل والأصدقاء أثناء العزلة التي فرضت على الجميع.

عدم توفر بنية تحتية رقمية مناسبة، وتفاوت درجة التطور بين المناطق داخل البلد الواحد قضايا تدعو إلى المطالبة بتوجيه اهتمام الدول إلى معالجة هذه الأمور بدل اعتبار ذلك أساسا للتشكيك في جدوى التعليم الرقمي عن بعد.

وحتى لا نكون محدودي الخيال بعد تجربة البشرية مع وباء كورونا، يجب أن نضع في الحسبان احتمال حدوث حجر صحي في المستقبل، وإغلاق المدارس والجامعات وكل الأماكن التي يتجمع فيها الناس. هل ستعلق الدراسة كل مرة لوجود بعض النواقص في التعليم الرقمي عن بعد؟

المنطقي والواقعي أن نتعلم من أخطاء التجربة الأولى والمسارعة إلى الاستثمار في البنى التحتية الرقمية ووضع الخطط لإدارة شؤون البلاد في مختلف المجالات ليس لأنه من المحتمل أن تتكرر حالات انتشار الأوبئة، بل ولأننا لم نخرج من مرحلة كوفيد 19 بعد.

هيئة التحرير

نازك ضمرة وداعا

انتقل إلى رحمته تعالى الكاتب العربي المخضرم نازك ضمرة (أبو خالد) يوم الإثنين، 29 حزيران (يونيو) 2020 في أحد مستشفيات ولاية كارولاينا الشمالية في الولايات المتحدة الأميركية. للفقيد مجموعة كبيرة من المؤلفات تشمل القصة القصيرة والرواية. هيئة تحرير مجلة «عود الند» الثقافية تتقدم إلى عائلته وأصدقائه ومحبيه بأصدق التعازي. تجدر الإشارة إلى أن الفقيد كان في السنوات الأخيرة كاتبا منتظما في «عود الند»، وكان يحظى باحترام وتقدير زملائه وزميلاته في المجلة. انظر/ي في العدد الفصلي 16 ملفا عن حفل التكريم الذي أقيم له في الأردن في شهر شباط (فبراير) 2020.

أدناه الكلمة التي ألقاها الكاتب نازك ضمرة في الحفل الذي أقيم لتكريمه في عمّان في شباط (فبراير) 2020. طالع/ي في العدد تقريرا عن حفل التكريم.

.

ترافق اثنان في يوم قائظ في مشوار طويل، فقال الكبير للأصغر: الطريق طويلة، وأخشى أن أتعب، فإما أن تحملني أو أحملك، فأسرع الآخر بالإجابة قائلا: أنا سأتعب بحمل نفسي، فكيف سأحملك؟ فتبسم الآخر: إما أن تسليني بكلام ينسينا تعب الطريق أو أسليك، حتى لا نشعر بهذا المشوار. هل نحن في مشوار سيطول هذه الليلة؟

لا بد أن أحملكم إلى عوالمي، ولا أحب التكرار وقراءة شيء مضى، فهذا الختيار مختلف في معظم شئون حياتي عن الآخرين، ولا أطيق الانضواء تحت نمطية ما، فسأحملكم معي إلى عالم بعيد عن الاقتداء بما اعتدتم عليه في مقالات الاستقبال أو التقديم أو الترحيب أو التحيات، فحلّقوا معي، فهذا العجوز حي خلاق يتجدد، وأخلق إيحاءات لا حصر لها في حدود طاقتي، فلأجعلها أمسية لا تشبه أمسية أخرى.

مرابع الأمس أضحت يبابا = = وزورق المجد ولى وغابا
أيا ظبيات الإنس قلن لنا = = ألا ولدتن سيداً وثابا؟
عاث في النفس قهر ويأس = = وأرض أجدادنا أضحت خرابا
يجوس الغريب شرقا وغربا = = وصغار النفوس يدمي الشبابا

يتنمل الصمت ويتململ، وريش الزغب ما زال في مهب الريح.

جمانة كانت هناك، فهل فكر أحد بالسؤال عما فعلت جمانتي؟ الروح تحلق مع الريح، الجراد والسموم يغزو بلاد القوارير، قوارير كانت من فضة. اليوم تشنف آذاننا محطات القتل والتخريب والنميمة، وجمانة تحبل وتلد بلا سند، وما أكثر الإخوان حين تعدهم!

حذرتني جمانة من تكملة الحكاية. مساؤكم بهاء وألق سيداتي سادتي. لم أدر ما يليق بهذا الجمال الذي يحيط بي من جانب، وأزهار جمانة تتراقص مع أنفاس هذه الأمسية المباركة، وكل زهرة تتمنى أن تنشق أنف كل حاضر هنا.

سيداتي سادتي، قد أقرأ قصة قصيرة جدا، إذا أردتم، وإلا فسأواصل ثرثرتي المختصرة على مسامعكم، يحلو السهر مع الأحباب، وتمر الساعات بلا حساب، وينقضي الوقت ونحن على بساط لقائنا.

وأم هيثم [هيام ضمرة] والدكتوره هناء البواب في ميدان المجد والسرد والشعر والحفلات. جمانتي تحييكم بحرارة، كررتْ ذلك مرات عدة، مسجاتها متصلة متواصلة مع هبات هذا المساء، لم تشأ أن تشكو مما تعانيه جمانة، لكنها تقول، كثر أولادها وكبروا، ولم يتحسن حالها، تحس بضيق وعزلة، لعلها

تريد حلا، تسائلكم بل ألحت جمانة على رغبتها بنجدتها، ودعم أبنائها، فهل من يثبت أقدامهم كي يتمكنوا أن يسيروا على الأرض بحرية وأمان؟

الليل يا ليلى يعاتبني، والروح تشقى بما تلقى من الألم. لا نريد أن نقلبها مناحة، فهل من شيخ طريقة ينعشنا بلمساته الروحية وبدعواته ورقاه الإيمانية؟

حيّ الله من معي، فأنتم الأهل، أنتم أهلي وسندي، وجمانة أسمع قهقهاتها وقفزاتها مرحا،

بعد ما سمعت وصفي لأجوائي هنا.

شكرا جمعية سماء الثقافة ممثلة بشخص ابنة العم الملهمة أم هيثم، والشخصية المرموقة في الأردن، بل تخطت الحدود، فسمت في أسماع معظم شعوب البلاد العربية، وخاصة من يهتمون بالأدب بجميع أشكاله والشعر والفن.

وشكرا جزيلا للأستاذة هناء البواب على جهودها المباركة، ونجاحها باقتدار في جعل هذا المركز ملتقى لإشهار الإبداع في جميع الفنون الكتابية، وزاره أو سهر به معظم أدباء الأردن وزائرون كثيرون من مختلف الأقطار العربية.

أتمنى لو تسمعون زغرودة جمانة، تصلني مع الريح الغربي مجلجلة، فرحة بحضوركم وسروركم سيداتي سادتي. وقبل صمتها تركت لي غصة بكلمات قصيرة، إذ قالت ليت طريقي آمنة لأذهب لصلاة العشاء في الأقصى هذا المساء.

معذرة، صمتت جمانة، ولم تعد على تواصل معي، هلو. هلو.

لا بد أن أصمت أنا الآخر، محبتي لكم جميعا، وعلى الدنيا السلام، وفي الناس المحبة. حتى لا تطول الثرثرة جمانة ذكرتني قبل صمتها بالآية الكريمة «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم». والسلام عليكم. حفظكم الله.

د. لطيفة حليم

لقاء آلي أدواتي: الزربية

جائحة «كورونا» تزامنت مع عيد الأضحى في غرفة صديقات أجمل العمر. هي فرصة لتبادل الآراء والتدرب على رتق وغزل زربية نسجت بتاريخ 1920. تجسد في زمن كورونا الذي تزامن مع عيد الأضحى ذكرى مرور مئة سنة عليها. رتقها هو الهروب من الجائحة للخروج من هلع الموت، والدخول في سلم الحياة. الجائحة تندرج معها قيم كونية. يدبرها أغنياء العالم ويخترعونها كما اخترعوا من قبل الاشتراكية.

كورونا ومونيكا

يندرج ضمن نوع من أنواع فنون الإثنوغرافيا فن موسوم زربية. عرف عند المرأة منذ عهود قديمة. إنها تؤشر إلى تذويت الذات الأنثوية لإدراك مفهوم زربية تنطح الحياة والموت. هي نسيج، مصحوب بنغم نتف الصوف وندف الثلج وعطر الأرز. الغرض من هذا الطرح هو مساءلة ما وراء الزربية من هزة؟ علامة عمرت مئة سنة.

زربية رتقت فتقها صديقات أجمل العمر بمئة رقعة ورقعة ليهربن من مناخات كوفيد 19. ومن مكر أغنياء العالم الخمسة. نرتق على أمل أن تختفي فجوة عند الرتق. صديقات أجمل العمر يملأن الفتق برقع مختلفة الألوان. تتجلى معهن الحياة ويختفي الموت.

لعبة اقتفيت فيها الأثر لمكاشفة الذات الأنثوية منذ سنة 1920، إلى أن حلت بنا لعنة «كورونا»، وصدر قانون الحجر الإجباري، الذي صادفني في دار بنتي بهرهورة. أخذت الأمر بجدية لمواجهة هلع موت محتمل، لأنني في سني الثالث تجاوزت الستين، مما جعل الطعم سهلاً لكوفيد 19.

احترفت مع بداية «كورونا»، وأنا في دار بنتي، حرفة سرقة اللوحات مع شهر رمضان والحجر الصحي. وعندما خف الحجر وانتهى رمضان، عدت إلى داري أقلب أركاني، أستعد لشهر العيد الأضحى. بدأت بنفض الغبار عن زربية بهت لونها وفك غزلها، وتشكلت لوحة تحمل تاريخ مئة سنة. حولت لوحة الزربية إلى فنانات تشكيليات: من إيطاليا، ربيعة الشاهد. ومن كندا، أفانين كبة. ومن فرنسا، حبيبة العرايشي. ومن المغرب، كوثر العلوي، وحكيمة الجراري. وغيرهن كثير.

في داري زمن كورونا، أقلب طرفي زربية متهالكة. أكاشف أثر حضارة علامات منسية، مليئة بالتفاصيل الرمزية، تحكي حكايات الوجود والعدم، الحياة والموت. أرتق الفتق. أرى صبية أناملها مخضبة بالحناء تترنح على عطر الأرز وتبتهج بندف الثلج. كنت قبل البحث في أركان الدار عن زربية تلاشى غزلها واندثر صوفها، قد تعاطفت مع بطل مسودة رواية ينتمي لمدينة طنجة وكان عشق صبية فاتنة.

هممت بكتابة رواية كان نزغ إبليس ينقر حروفها على شاشة الكومبيوتر وصاحبي أحمد يمسحها. يتفوق على إبليس الرجيم. الرواية من وحي جدي لأمي. سبق أن روى لي حديثا سمعه عن جده لأبيه القاضي محمد بناني بمدينة فاس. كنت صبية أسمعه بأذن لاهية. أتلذذ بعلك «بازوكا». وألهو بلعبة «مونيكا». جدي يعرف القليل عن جده.

استنطاق زربية غزلها كان قبل «كورونا» بمئة سنة: 1920

كنت قد بدأت برسم حدود مركزة لمسودة رواية ما زلت أحمل هموم شخوصها وأرتق فراغ فجواتها، انطلاقا من الحاضر الزئبقي الذي أعيشه. راسلت

صديقات أجمل العمر عبر بريدهن الإلكتروني. حصلت على معلومات باهتة تشبه هذه الزربية. بعضها ورد عن سيلفيا، كاتبة كندية من أصل مغربي.

مسح صاحبي أحمد رسالة سيلفيا. انتبهت. يجب أن أبحث عن بعض التفاصيل التي لم يذكرها جدي. لا تسعفني ذاكرتي لتذكر أحاديث جدي الذي روى عن جد جده القاضي محمد بناني. كنت صبية. كنت لا أحمل قيما إنسانية عامة. كانت قيما محلية.

داهمتني «كورونا»، وأنا في نهاية السن الثالث. تخيلت صبية فاتنة من مدينة طنجة. نزح جد جد جدها من أشبيلية. أسهم في ازدهار مدينة طنجة وتنشيط تجارتها. عزمت على زيارة ضريحها. حددت موعدا مع صديقتي كوثر لزيارة مدينة فاس، واتفقت مع خليلتي رغدة على زيارة مدينة طنجة بحثا عن أحفاد وأسباط، أسباط عشيق أجهل اسمه. الجائحة منعتني من ذلك.

لا أدري السبب الذي جعلني أبحث عن صبية ولدت بطنجة وقتلت بفاس، وتبادل معها الحب شاب من نفس المدينة، ابن الجيران، من الأعيان. وصفت جسدها اللدن. رسمت قوامها الرشيق، وزوقت ملامحها الفاتنة، وأنا متضمخة بأجواء من الحلم ورعشة من الحب.

شعرت أني انتمى إلى كل بلدان العالم. أوطد النفس وأروضها على العيش دون نوستالجيا [حنين]. مؤمنة بالتسامح والتعايش. وفي لحظة استبد بي نزغ إبليس الرجيم. مزق أحمد المسودة. واسترسلت أقلب أطراف زربية أرتقها لأخرج من «كورونا» وأحرك البحث عن موعد آخر للطائرة إلى مونتريال.

فترة استولت علي، وأنا أقلب زربية وأقلب في المحرك عن تذكرة سفر جديدة واقرأ أخبار الانهيارات البنيوية والسياسية وجو الفساد العربي. أهمس: لم تكن «كورونا» إلا تعبيراً رمزياً عن السقف الذي وصلت إليه الأوضاع الكونية. لا أؤمن بقيم كونية ولا اشتراكية.

ابتعد عن «كورونا» بمئة رقعة ورقعة. أنشر على جداري الفيسبوكي كل يوم

رقعة بأنامل صديقات أجمل العمر، مترجية الحصول على مئة رقعة لتجاوز محنة «كورونا»، ولملمة تاريخ زربية في لقاء آلي.

= = =

بمناسبة مرور مئة سنة على زربية نسجتها أنامل جدتي لوالدي سنة 1920. ارتق فتق الغزل وأردد قول الله سبحانه وتعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا» (سورة النحل؛ الآية 92). غزل المرأة موغل في التاريخ.

= = =

الخميس 30-07-2020

يوسف بونيني

الأب جلّاب والأم دولاب

«الأب جلّاب والأم دولاب» يقول المثل اللبناني ومعناه: أن الرجل يعمل ويجلب المال والأم هي المقتصدة التي تتعامل مع ما جاء من مُؤن. هل هذا يصح في كل الأوقات وفي كل الأزمنة؟ لا أظن، وإليكم تفسير ما أقصد.

الرجل جلّاب نعم لأن من واجباته النفقة على العيال، فهو الملزم بتوفير حاجيات البيت، وجلب كل ما يلزم من أكل وشرب ومُؤن مختلفة كاللباس ومختلف المستلزمات التي تدخل في شؤون البيت. كما من واجب الأب أيضا تسديد ما يستعمل البيت من خدمات الدولة من ماء وكهرباء وغاز، وتوفير العلاج واقتناء أدوات الراحة والزينة لأفراد العائلة جميعهم، إلى آخره.

لكن مع تغير ظروف المعيشة وتقلد المرأة عبء العمل عن حاجة أو عن غير حاجة، أصبحت النساء كالرجال على السواء مطالَبَات بتوفير ما يطلبه البيت من حاجيات. إن النفقة على العيال، إن هي صدقة، فهي أيضا عبء كبير لما يلاقيه المنفق من متاعب ومشاق. ذلك أن حسن التدبير هو أهم مزية لو توفرت صلح أمر البيت كله. وقد أصبح المنفق هو الحارس الوحيد على كيفية صرف ماله، يحاول ما استطاع أن يبتعد عن التبذير والإسراف، مخافة الوقوع في الحاجة واللجوء الاضطراري إلى الدين.

نعم كانت الكثير من النساء، كأمهاتنا وجداتنا فيما مضى، «دولابا» تحافظن على ما يجلبه الرجل من مؤونة وتحسن استعمالها طيلة الشهر، إلى حد أن صاحب البيت لا يشعر بالحاجة وقت نفاذ ماله قبل الوقت إن حدث حادث كنزول الضيف على البيت أو حدوث طوارئ مثلا.

ومع تقدم المدنية، والتغيير الذي طرأ في نمط المعيشة ووفرة السلع والخدمات وتنوعها إلى حد الرفاهية، أصبحت معادلة الإنفاق تشكل عبئا على المنفق وحدهـ وفي كثير من الحالات أصبح الأب جلابا ودولابا في الوقت نفسه. فبالإضافة إلى ما يعانيه العامل أو ما تعانيه العاملة من جد وكد وتضحية في مكان العمل لجلب المال، فهو ينفق طاقة زائدة على حساب صحته ووقته، للسهر على حسن استعمال أفراد الأسرة لما ينفقه الأب أو الأم.

استهلاك الكهرباء مثلا خدمة للبيت، أصبح مشكلة صعبة الحل، وسببا في حدوث المناوشات بين الأب أو الأم والأبناء، وأصبح الأب هو الخاسر الأكبر في مسالة تحكمه في هذه الخدمة. فجيل «شبكة الإنترنت ومشتقاتها» كأدوات اللعب والهواتف الذكية وأجهزة التلفزيون لا يكترث بتاتا ولا يأبه لمسألة الغلو في استهلاك الكهرباء ليل نهار.

يقوم الابن، مثلا، بتشغيل كل ما له من أدوات اتصال في وقت واحد. ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى إشعال أضواء الغرف في وضح النهار كلما دخل الولد أو البنت لقضاء حاجة معينة كلباس ثوب أو جلب شيء معين، أو ترك ضوء غرفة أو بهو في حالة اشتغال وذهاب الابن إلى مكان آخر بحجة أنه سيرجع إلى ذلك المكان ثانية ولا داعي لإطفاء مصباح الغرفة.

ويعلم الله ما مدى غلاء مادتي الكهرباء والغاز اللتين تأخذا عند التسديد ما يزيد عن 30 في المائة مما يتقاضاه العامل المأجور أو المتقاعد من الطبقة الوسطى في مدة ثلاثة أشهر. وفي هذا الصدد، وقفت يوما على شيء عجيب صدمني وأنا داخل إلى غرفة ابني الصغير، فإذا بي أجده حاملا بيد هاتفه المحمول يدير في لعبة وينظر في الوقت نفسه إلى شاشة الكمبيوتر لفيلم

بوليسي. نعم هذا هو الاستغلال الحقيقي للوقت اثنين في واحد، كما يُروَّج لغاسول الشعر.

تصور أن الشاب إذا ما دخل مطبخ المنزل، وصادف أباه هناك، فيلاحظ هذا الأخير تصرفات ابنه معظمها خاطئ تحتاج إلى تقويم. فمثلا يفتح الابن الثلاجة ويمكث وقتا معتبرا وهو يتفرج ما بداخل الثلاجة من أكل وشرب. وإذا ما حاول الأب إرشاد ابنه على أن فتح باب الثلاجة طويلا يفسد غاز الثلاجة، كان رد فعل الابن ردا غريبا، يفهم منه أنه لم يخطئ.

والمرأة التي لا تقتصد عند طبخها للغداء والعشاء، ما دام المتوفر لها من خضر وفواكه كثير. والبنت التي تسرف في استخدام منشف الشعر، وفي استعمال مواد التنظيف عند نظافة غرف البيت، والحديث يكاد يطول في هذا المجال.

هذه الملاحظات كلها وتزيد، يقص الآباء تفاصيلها يوميا عند لقائهم ببعضهم البعض رغبة في الترويح عن النفس من جهة وفضولا في معرفة إن كانت هذه الظاهرة موجودة في بيوت أخرى من باب «إذا عمت خفت».

وداعا لزمن كان فيه الناس «يُرقِّعون» ما عاب من الملابس والأحذية، فالولد الآن يغير أحذيته وملابسه كلما خطر له ذلك. وصدق من قال: «العصر الذهبي هو العصر الذي كان الذهب فيه منعدما».

«الأب جلاب والأم دولاب» مثل جاوزه الزمن منذ مدة عند الكثير من العائلات، والسبب يعود حسب فهمي، كما أسلفت، إلى تغير نمط المعيشة الذي أثر في الشعور بالمسؤولية، وما انجر عنه من تداعيات.

عندما تتخذ الوسائل غايات، وعندما تنتقل كثيرا من الكماليات إلى ضروريات ما لم يكن له نظير من قبل، وفي غياب التوجيه والإرشاد وتوعية هذا النشء بأخطار الإسراف وضرورة الاقتصاد في المعيشة وتوجيه الأموال إلى ما هو مفيد وما يدر من خير وربح، أصبحت المشاكل تتفاقم والمسؤوليات تتميع ولاح في الأفق نهاية التماسك الأسري. وأرى أن لتخفيف عبء هذه الاثقال المنصبة على كاهل المنفق وحده، وزيادة على ما يقوم به هذا الأخير من توعية مستمرة

لأفراد الأسرة وهو مرغم على ذلك، على الأبوين أن يشعرا بضرورة التفاهم بينهما وطرح مشاكلهما جانبا، وتوحيد جهودهما قصد التوجيه السليم لنفقات البيت، وهذا لإعطاء أفضل درس للأبناء في مجال الاقتصاد في النفقة، لا بل على أفراد الأسرة جميعها الوقوف لتحمل أعباء البيت مشتركين، ومحاربة اللامبالاة التي عمت وطمت. الاتحاد قوة كما يقال.

ولا بد على أهل الحل والعقد، القائمين على شؤون العباد أن يُجروا مختلف الدراسات السوسيولوجية والنفسية وتوفير الأطباء الأكفاء المتخصصين لتشخيص الداء الذي أصاب هذا الجيل الأخير الذي أزعُم واثقا أنه ضحية وقته وظروفه.

وفي المقابل، كثيرا ما تراودني نفسي وتقول لي: ألم يقل أديبنا الدكتور طه حسين في أواخر الخمسينات: «متى رأيت الشباب يحبون المهل ويصطنعون الأناة ويأخذون أنفسهم بالرفق؟ ذلك شيء لا يوافق طبائعهم ولا يلائم غرائزهم ولا يتأتى لأمزجتهم».

فما بالك لو ما زال طه حسين حيا يعيش بيننا: أتراه يستمر في القول ما قاله في حق الكثير من الشباب الذي هو الآن أكثر اندفاعا وحماسا وعجلة؟

نعم «الاندفاع أخص خصائص الشباب» كما قال أرسطو طاليس منذ خمسة وعشرين قرنا، ولكن الخير كل الخير في أن يندفع الشباب فيما يجدي وينفع أيضا، ولننظر إلى تاريخ البشرية ومقدار مساهمة الشباب في نهضته.

ورحم الله المصلح البشير الإبراهيمي عندما قال عن الشاب الجزائري في مقالته الرائعة: الشاب الجزائري كما تمثله لي الخواطر: «أتمثله حلف عمل لا حليفة بطالة، وحلس معمل لا حليس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال».

«الأب جلاب والأم دولاب»، لا لا، بل الأب أو الأم جلاب، والأم أو الأب دولاب، ما دام الوضع قائما كما هو عليه الآن.

وهيبة قـوية

حكاية باب

تمكّن منّي الحزن كما تمكّن منّي التّعب والأرق من قبل. أتى، لا أعرف من أين، هكذا! دفعةً واحدة، كتلة ثقيلة جدّا، مثل يد عملاقة من نار ودخان تسدّ شقوق أنفاسي فيتبعثر كلّي، وألتقط بين الحين والحين نفسا بصعوبة. كلّ نفَس له طعم مرّ ورائحة خانقة تتفشّى في كلّ خلايا روحي. ويَثقل صدري. ويضيق. يضيق، وأختنق. أختنق، وتصبّ اليد العملاقة في روحي أطنانا من الحديد المذاب يحجب عن روحي الحياة.

وكنت وأنا غارقة في حزني أسمع صوتا خفيّا خافتا يلحّ عليّ بأن أنهض، وأن أسعى في دروب الحياة، وأن أحاول فتح الباب وأخرج. بَعيد الباب، بعيد جدّا، فكيف أصل إليه وأفتحه؟ ورأيت، فيما يرى الغريق، خيطا رفيعا يشدّني إلى مسلك ضوء أبعد من الباب. ولكنّي لم أعرف كيف تكون أوّل خطوة إليه. حاولت، ففي المحاولة حياة. ولكنّي وجدتني مسمّرة في مكاني، يشدّني الحزن الخبيث إلى القاع ويغريني الباب بالخروج وروحي تتأرجح بينهما ولا تستقرّ.

باب البيت أمامي، حاولت أن أقترب منه. مددت إليه بصري أنظر إليه ولا أحبّ أن يغلق. لم أصل إليه كما لم أصل إلى أيّ مكان في البيت. المسافة بعيدة جدّا. متران أو ثلاثة أمتار أو خمسة، هل عليّ أن أتحرّك وأتنقّل كلّ هذه المسافة؟!

وبعد؟ لماذا أتحرّك في البيت؟ لماذا أخرج من البيت؟ لست إلاّ مجرّد جثّة تتنفّس. أو شجرة عجوز تقف على حافة الطّريق، تتشبّث بالأرض لتقف مترنّحة وتطلّ على ما حولها وما لا يتجاوز طول أغصانها وظلّها، وتنسى الفصول الّتي تمرّ بها لأنّها لا تثمر. ومثلها أنسى. ولا أذكر إلاّ أنّ الحياة مستمرّة خلف الباب، بعيدا عنّي ولا تتعثّر بجثّتي وأنا مشدودة إلى وسائدي وحولي جدران خرساء.

بقيت أراقب الباب قبالتي وأبتسم كلّما اقتضى الأمر حتّى لا يرى من حولي حزني الخبيث الثّقيل، وأحاول فتح أبواب موصدة في روحي وأغلق أخرى.

= = =

باب البيت مفتوح على جدار أبيض ترتسم عليه أشعّة الشّمس، تمحوها سحب داكنة تراوغها مرّة غِبّ مرّة، وأنا لا أتحرّك من مكاني. ألتقط المشهد ما بين الباب والجدار وأتفقّد الجدران الّتي تحيط بي. ماذا لو أبعدت هذا الواقف خلفي؟ هل سيتّسع مجال الشّمس ومجال الغيوم ويصير مكاني بينهما؟

قد أركب غيمة تطير بي وراء الشّمس. تحرقني الفكرة فأنكمش في مكاني. وأطير إلى فكرة غيرها. ماذا لو حاولت دفع الجدار حيث أضع الوسائد لأتّكئ؟ هل تدخل الشّمس أو السّحب إلى البيت؟ تغسلني مياه سحابة تعبر فوق رأسي فتعرّي حزني وعدم رغبتي في مشاركتها الاحتفال بالمطر.

ويجرفني سيل الفكرة. إذا أبعدت هذا الجدار فسأحرم من زاويتي الّتي أراقب منها الباب والجدار الّذي يُفتح عليه. ماذا لو رفعت السّقف قليلا هل سيتّسع المكان لأتنفّس؟ لو حملت البيت كلّه إلى مكان آخر؟ فوق السّحاب مثلا. أبتسم لفكرتي. وأتراجع. لا يوجد سحابة تحتمل وزن البيت، إن استطاعت فستمطر حطامه على الأرض وأظلّ معلّقة في الفراغ.

يظلّ السّقف فوق رأسي لا يرتفع ويُسقِط عليّ أفكارا تدوّخني، وتظلّ الجدران واقفة حولي تصدّ عنّي الشّمس والسّحب والرّيح وتسند وسائدي وتراقب ضعفي. وتظلّ أمنيتي تبعدها وترفعها وتغيّر أمكنتها وتبحث عن

احتمالات جديدة لمكان يتّسع لضيق صدري ويمنحني الأنفاس اللاّزمة لأغيّر مكاني أو أخرج حيث الشّمس، وأركض مثل الرّياح.

ويظلّ البيت قفصا كبيرا يحبس روحي، ومهما حاولت دفع جدرانه لا يتّسع. مع ذلك لا أرغب في الخروج منه، فهو يحميني من النّاس وأسئلتهم الكثيرة. ويحميني من القناع الّذي عليّ أن أضعه لأظهر للنّاس أنّني بخير. فأنا بخير، ما دمت في بيتي لا أتجاوز بابه ولا الجدار أمامه. البيت سيحميني دائما وسأكون بخير.

لا يهمّني العالم الّذي يمضي في سُبل الحياة خارج البيت وما بعد الجدار الأبيض الّذي يسوّره. ذاك عالم لا أحبّه. فأنا، من مكاني قبالة الباب، أرسل أطيافا تجوب الأرض وتطير في كلّ مكان وتمنحني القوّة، فأقاوم الحزن، أو تزيد حزني إذ تعود الأطياف بمزيد من الأسئلة. لا أجيب. أنظر إلى الباب المفتوح وأغلق باب تفكيري. أنا لست هنا. وهذا يرضيني.

وحين يُغلق الباب في اللّيل أواصل النّظر إليه. وأنتظر أن يُفتح من جديد ربّما يأتي منه حلم ما، بلا جرس وبلا موعد. وقد يزول الحزن العالق بروحي وأنزل على الأرض لأعانق الحلم.

يصير الباب في اللّيل حاجزا بيني وبين الأنوار الّتي تظهر خلفه وفوق الجدار الأبيض. أرى الباب واقفا بهمّة يصدّها وأراها تعانده فتتسلّل من تحته ومن جانبيه ومن فوقه. تحيط به كإطار من النّور ويبقى الباب مظلما. يصير معلّقا في محيط النّور وأظلّ معلّقة في الظّلام والفراغ. وأصير بابا معلّقا مشرعا على الحزن. وتظلّ عيناي مرشوقتين على لوحه فأبعث خيالي يرسم له أحلاما وابتسامات وبعض الحكايات حتّى ينفتح صباحا على الجدار الأبيض على أمل أن تشرق الشّمس ويلاعبها الغيم.

وطال مجلسي أمام الباب ينفتح وينغلق. يوما بعد يوم، لا أبرح مكاني نهارا أو ليلا، أراقبه وأتخيّل كيف أغيّر الجدران في هذا القفص الكبير، وأزيّنه بحكايات أرويها لنفسي.

كانت جدّتي رحمها الله، تراقب باب بيتها مثلي، رغم أنّها لم تعرف حزنا مثل حزني، فقد كانت امرأة تحبّ الحياة كثيرا ودائمة الابتسام والفرح وتشارك كلّ النّاس أفراحهم المتنوّعة. وكان باب بيتها معبرا للفرح، ومنه يدخل الناس بأخبارهم المتنوّعة. كان بيتها عامرا في كلّ الأوقات وبابه لا ينغلق إلاّ في ساعة متأخّرة من اللّيل حين تطمئنّ أنّ كلّ من في البيت قد نام. ولمّا تقدّمت بها السنّ وتفرّق أهل البيت الكبير على بيوتهم الخاصّة، حافظت على عادة فتح الباب والجلوس قبالته.

تقول جدّتي: ‹‹أرى وجه الله حين يُفتح الباب››. وكنت أصدّقها وأجلس إلى جانبها وأنتظر أن أرى وجه الله. ورأيت خلقا كثيرا يمرونّ أمام الباب المفتوح، ويدخلون منه، وراقبت معها الشّمس والرّيح والظّلال. ولا أدري إن كنت حينها قد رأيت وجه الله. ولكنّي كنت أطمئنّ حين أسمع تسابيح جدّتي في مجلسها قبالة الباب. كم تمنحني الثّقة!

وتعلّمت من مرافقة جدّتي ومجالستها كيف أثق بالله لأراه، كما تعلّمت منها تدبير أمور كثيرة منها عدّ الأيّام على طريقتها. وأعتقد أنّها كانت تعرف حبّي للأعداد والعدّ مع أنّني لم أخبرها. وجدّتي تعرف كلّ المواعيد، ولا تخطئ في عدّدها والاستعداد لها. وكلّ مواعيدها ترتبط بمواسم الفلاحة، مع أنّها ليست فلاّحة، أو ترتبط بمواسم دينيّة كثيرة كانت تحفظ ترتيب قدومها إلى البيت. وكانت شديدة التعلّق بأدقّ تفاصيل المناسبة. ويسعدها ذلك، فتسعد الأطفال في هذه المناسبات ببعض الحلوى أو بهبة ماليّة، على بساطتها، تدخل الفرح إلى كلّ القلوب الصّغيرة. كان قلبها كبيرا ومفتوحا مثل باب بيتها وأكثر.

مرّة، دخلت عليها وكانت واقفة في فناء البيت ترفع يديها إلى السماء بالدّعاء وعيناها في اتّجاه الباب المفتوح مع ذلك أعتقد أنّها لم تلحظ دخولي منه لانشغالها بما هي فيه من تبتّل وابتهال. حين أتمّت دعاءها الجميل التفتت إليّ وقالت: ‹‹المباركات خرجت››. وسيزورنا الخطّاف، وسيبني عشّه ككلّ سنة في سقيفة بيتنا››.

لم يخطئ طائر الخطّاف موعده، ودخل إلى بيت جدّتي واتّخذ زاوية بين الجدار وسقف السقيفة ليبني عشّه، وجدّتي تراقبه بفرح، بل تعدّ الأيّام لموعد خروج الفراخ من بيضها ومواعيد دروس طيرانها. وحين طار أوّل الفراخ دعت من كلّ قلبها ويداها ممدودتان إلى السّماء ونظرها معلّق في آخر شعاع للشّمس قبل اختفائها في الأفق: ‹‹يا ربّ: وكري وكري. وهذا البيت وكري فبارك لي فيه واجعله عامرا، وأعد إليه من طاروا منه سالمين، وارحم من رحلوا عنه، ويسّر لي ببركة الطّير القادم من بيتك زيارته ولا تحرمني من وجهك الكريم››.

يومها عرفت أنّ جدّتي، رحمها الله، وقد حجّت البيت، كانت ترى وجه الله في الطّير القادم من بعيد. وحين تحدّثت معها في ذلك، قالت: ‹‹نرى وجه الله في كلّ خلقه وفي كلّ تفاصيل حياتنا. نراه بقلوبنا لا بعيوننا››. ثمّ وضعت يمناها على صدري، حيث أشعر بالخفقان، وأضافت: ‹‹حين يكون هذا طاهرا ومفتوحا لخلقه ترين وجه الله››.

أغمضت عينيّ وتنفّست عميقا ورأيت وجه الله في التّفاصيل الصّغيرة لحكمة جدّتي، رحمها الله. وها أنا أحاول مثل الطّفلة الّتي كانت، أن أتنفّس عميقا وأغمض عينيّ وأفتح قلبي لأرى وجه الله. ولكنّي لم أعد طفلة. رحم الله جدّتي، لم أتعلّم براءتها. ونسيت عدّ الأيّام مثلها. فالأيّام في حسابي مختلطة ولم أعد أحفل بدخول الرّبيع أو خروج الفلاّحين لمواسم الجني المختلفة. ولم أعد أعرف العدّ ولا الأعداد، ولم أعد أميّز بين الأيّام، فكلّها سواء. وطائر الخطّاف لا يزور بيتي، أظنّه لا يعرفه.

موسم الخطّاف حلّ منذ بدأت العطلة القصيرة الّتي منحها لي الطّبيب على أمل تخفيف الحزن الّذي اجتاحني ومحاولة لتخفيف أوجاعي المتنوّعة. لم أخرج من البيت لأرى الطّائر القادم من بعيد يحمل ألوان الرّبيع، ولكنّي تشجّعت ووقفت عند الباب قريبا من الجدار الأبيض الّذي يسوّر البيت.

كان عدد من الطّيور يطوف في الفضاء وبعض آخر يحطّ على سلك الكهرباء القريب. ما زال يبحث عن مكان يبني فيه عشّه. رأيت أيضا حمام الجامع

يطير نحو الصّومعة وحولها، وتمنّيت لو تحطّ حمامة وخطّاف في زاوية من زوايا بيتي. وضعت حبّا عند زاوية من الجدار الأبيض على أمل، وما زلت أرقب الفضاء من خلال الباب، أطمع أن تبعث الأطيار حياة أخرى لجدران البيت.

وانتبهت إلى نشيد الطّير السّاكن بين أغصان شجرة اليوكاليبتوس المطلّة من نافذة الغرفة. وبنيت عشّ الخطّاف في رأسي. وها أنا أنتظر أن يفقس البيض لأراقب طيران الفراخ الصّغيرة.

أراقب الطّيور وأنا قبالة الباب، والوجع نار تضطرم في كلّ عظامي يزيد من حزني ويقوّيه. تتحكّم فيه حركة زائدة حينا أو راحة زائدة حينا آخر، وحفنة الدّواء لم تعدّل الوجع ولا مزاجي ولا نومي. ومع مرور الأيّام صرت أقنع نفسي بضرورة التّعايش مع الوجع. ولكن كيف؟

يشهد الباب المفتوح أمامي كم مرّ من خلاله من الأفكار الّتي كتبتها على الجدار الأبيض وبها مقترحات للخروج من حالتيْ الحزن والوجع معا. ويشهد الخطّاف الّذي عشّش في رأسي كم ريشة ألصقتها بجناحيّ لأتعلّم الطّيران مع فراخه الّتي نقف بيضها وبدأ يكسوها الرّيش، وطمحت أن أطير معها وأخرج إلى الشّمس والهواء.

ويشهد الله ووجهه المبتسم في سماء روحي أنّني لا أرغب في الحزن ولا في الوجع. ولكنّني موجوعة وحزينة ورغبتي في الحياة صرعتها رغبة الفناء.

وأنا بين الرّغبتين أحاول أن أتمسّك بالقليل الباقي من أنفاسي وأستعين بوجه الله المشرق في قلبي وثقتي في أنّه سيعينني. لذلك أحاول أن أساعد نفسي لأخرج ممّا أنا فيه، فاعتنيت أكثر بمواعيد الدّواء ودوّنت على الأوراق المواقيت حتّى لا أنسى الأيّام، وحتّى يزول الحزن ويخفّ الوجع وتبتعد عنّي الحفر السّوداء الّتي تجذبني إليها. وانزويت حتّى لا تنتقل عدوى الحزن إلى من أحبّهم. أقاوم الوجع ما استطعت ولكنّه عنيد، والحزن أشدّ عنادا منه.

بقيتُ أيّاما وأنا أنظر إلى الرّوزنامة وإلى يوم محدّد وضعته في دائرة كي لا أنساه. هو اليوم الّذي سأفتح فيه باب البيت وأخرج بعد عطلة دامت شهرين

متتاليين لم أفتح فيهما باب البيت سوى مرّتين لأجل عيادة الطبيب. واحتجت إلى ثلاثة أيّام لأقنع نفسي بالخروج إلى الشّمس خاصّة بعد الأمطار الغزيرة الّتي هطلت لأيّام في غير موعدها. وكلّ يوم أحاول التدرّب على فتح الباب والخروج، ثمّ أعدل وأبرمجه لغد كاد أن لا يأتي.

كنت أفكّر في الطّريق الطّويلة. ثلاثمائة متر أظنّ. لم أفكّر في قياسها ولكن عادة خمس دقائق بخطى وئيدة توصلني إلى العمل. ويحسدني كثيرون على قرب بيتي من مكان عملي. ليتهم يعلمون كم هي بعيدة المسافة حين خرجت هذه المرّة.

وجدت الشّمس في انتظاري خلف الباب ورافقتني إلى العمل وأنا أبتسم للسّماء ولخطواتي المرتعشة على الطّريق المقفرة، والّتي كنّستها ريح لم تكن قويّة. وتوقّفت مرّات أنظر إلى الخطّاف يقيم مهرجان طيرانه في الفضاء الواسع فيرتفع إلى السّماء مرّة وينخفض حتّى يكاد يلامس الأرض مرّة أخرى. فحرّرت الخطاف الّذي في خاطري ليحتفل بجناحيه وأطلقته ليبني عشّه خارج رأسي.

وراقبت زرقة السّماء وبعض الغيمات المشرقة بأشعّة شمس الصّباح، وأنا أبتسم لوجه الله المشرق في سمائي، وروحي تلتقط زقزقة الطّيور في الطّريق الخالية من النّاس، وتشرع جناحيها مثل الخطّاف في زرقة الأفق الممتدّ.

نوزاد جعدان

ودفنتُها في القمر

بحثتُ عنها في غوغل وفي وسائل التواصل الاجتماعي. سألتُ الأصدقاء والزملاء عنها ولم أرَ لها أي أثر. كثيرا ما كنت أتخيل لون غرفتها وفرشاة أسنانها وأيّ الثياب ترتديها في المنزل. كنتُ غارقا في تفاصيلها ولم أدر أنها لسوف تفصّل لي كل شيء في حياتي. ولكن الآن بعد ثلاثين عاما منذ آخر مرة رأيتها فيها حين كنت في الصف التاسع، سرى بي شوق لا يخمد أواره.

الآن ونحن في عام 2050 كان ليلا كبيرا على وطن لم يكن إلا صغيرا لنا. الأوضاع كلها مثلما قبل. ولكن يا ترى ما أخبارِكِ يا نبال؟ ما زال الوطن على حاله. هذا الوطن الذي لا يعرف سوى الكره. ربما لم يجد الحب بتة، ففي سورية كل شيء مباح: أن تقتل أن تغتصب أن تسرق إلا الحب. الحب مكلف جدا ورسوم الزواج باهظة والجمهور مستعد أن يشاهد نشرة الدماء عشرات المرات على أن يشاهد مشهد قبلة بين عاشقين.

الحكومة تكره الشعب والشعب يكرهها ويكره المعارضة والمعارضة تكره الحكومة. معادلات معقدة من الكره تحتاج إلى ألف رسول محبة ليفكك ألغازها. الكراهية في كل مكان على موائدنا وفي سجوننا وفي الحواري. لا أحد يحب الآخر. ولا أجد واحدا سليما إلا ويحمل داء الكراهية. حتى الأطفال

لم يسلموا من هذا الداء، فمعظم ألعابهم لا بد أن تحمل مسدسا وأدوات قتل محكمة.

ربما شنق الحب يوما نفسه على إحدى ساريات الوطن التي يفضّلها الخياطون كل يوم، أو رمى نفسه من إحدى الشرفات منذ أن قُتلت نبال.

نعم هذا ما وصلني من موجّه المدرسة على حسابه في فيسبوك الذي ما زال يردد الشعار الحزبي صباح كل يوم ويمليه على الطلبة في تلك المدرسة التي كانت حلما أني كنت طالبا فيها يوما. وما زالت حالي كما هي: أسير على قلق. وهذا القلق يمضي على قلق أيضا. كل شيء حولي في حالة قلق. قلق يبدأ ولا ينتهي. دائما ظننته من هذه الغربة، ولكني أيقنت أخيرا أني بسبب عدم بحثي عنها كل هذه السنين.

نعم في هذه السنين كبُرتْ يداي كثيرا حتى أصبحت لا تلائم جسدي، لذا أتفنن بحفر الأنفاق كخلد من جحر إلى جحر ولكنني أبدا لا أجد المكان الذي يناسبني.

كان عليّ أن أعود إلى نبال مهما كلفني ذلك، أن أهرب من هذا الهدوء والسلم المزعج الذي أحياه. عدتُ إلى الوطن مكرها بسبب الحب. ثلاثون عاما وما زال خبز الوطن مغمسا بالدم، لم يتغير شيء سوى أن حبّي الأول مات.

بحثت عن جثتها في كل مقابر المدينة، وسألت دوائر النفوس عنها ووكالات المقابر المنتشرة في كل حي عندنا، فالمقابر تتكاثر بسرعة في هذا الوطن. وأخيرا وجدتها في المقبرة الإسلامية الحديثة في ضواحي المدينة وذلك بعد محادثات طويلة مع أقربائها من صفحة اتخذتُ فيها اسم فتاة.

وقفت أمام قبر امرأة قتلت بسبب المشاكل الطائفية التي حدثت في المنطقة، ولأنها من غير طائفة أصحاب الأحذية السود. انتظرتُ إلى المساء كي أستخرج جثتها. فتحتُ القبر على مهل بعد أن رشوت حارسها بما يكفي من المال، فما زلت الرشاوى تنقذ أولاد البلد.

حفرتُ كثيرا إلى أن رأيت الهيكل العظمي الخاص بها. أين تينك العينين الخضراوين النجلاوين؟ وأين تلك الخدود الوردية والشفاه المقوسة وكأنها قوس

قزح يحمل الكنوز لكل من عشقها؟ أين اختفى الفخذان الممتلئان الجميلان وفوقهما تنورتها الخضراء والسيقان الحلوة؟ كانت تنتعل عليهما بوطا طويلا وتمزح وتقول لنا بكل أنوثة:

«يلا يا شباب افتحوا كتاب الإنجليزي على الصفحة ثلاثين».

ونحن الشباب الصغار لم يكن بمقدورنا شيء سوى أن نتحسس أعضاءنا بهذه الأنوثة الطافحة.

ثلاثون سببا الآن يدفعني لكي أضم عظامك. أمسكت عظامها وتأملتها. ما أسخف الإنسان! حاولت أن أحضن تلك العظام الباردة، أي ما فاتني وأنا في ذروتي. لم تشعل بي أي شهوة جنسية.

أمسكت هيكلها العظمي وتأملته. حاولت أن أتذكر غمازاتها وضحكتها وكل تفاصيلها التي كانت تسحرني. بكيت كثيرا على ذلك الجسد الجميل. ترى ما الذي حصل لها قبل أن تموت؟ هل اعتدوا عليها أم ضربوها بالهراوات أم نحروها وحرقوا جسدها حتى لم يبق سوى هذا الهيكل؟

ترى كيف ماتت؟ ما الذي كان يقلقها قبل أن تموت؟ وما الذي كان يحزنها؟ ترى هل كانت تتذكرني؟ وأنا أفكر بهذه الأسئلة كانت أصابعي تكبر أكثر وأكثر حتى مزقت القفازات التي أرتديها.

لكن لم أتوقع هذا السيناريو. أمعقول حبيبتي تموت قبلي؟

كانت الحياة لنا. كيف هكذا أصبحت لغيرنا؟ كم كنّا كتّاب سيناريو فاشلين في طفولتنا. لم نتوقع كل هذا الجنون أن يحدث لنا.

أمسكت عمودها الفقري وعظام ساقيها ويديها وأنا أتحسس أين الطبشور على يديها. جمعت عظامها ووضعتها في كيس فاخر جلبته معي، أما جمجمتها فحملتها بيدي. خشيت أن تعاتبني وأنا أضعها في كيس كما نضع شاة قد ذبحت مؤخرا. ولكن أين أدفنها؟ مستحيل أن أدفنها بين كل هؤلاء القتلة في هذا الوطن الذي لا يعرف الحب، وطن لم يبق مكان فيه لدفن جثة، وطن تفنن بكل أنواع القتل.

نعم سأدفنها في القمر. يُقال إن من يدفن أحبته في رمل القمر يعود إلى الحياة بهيئة أخرى، والآن ونحن في هذا العام تهيأت لنا رحلات سياحية إلى القمر في ظل المقابر التي انتشرت في العالم لم يعد مكانا مناسبا للسياحة.

حملتها متعبا. كم كان القمر مخادعا لا سيما وأنه يبدو جميلا من بعيد، بوجهه المشرق ورأسه المدور كطفل مولود حديثا. أما هنا على سطحه فكئيب ومظلم ككاتب لا يتقن سوى نسج الحكايات. غطيت عظامها برمل القمر وأخطأت في قراءة الفاتحة عدة مرات ولم تفلح معي.

ها أنا الآن في الأرض واقتربت من سني تقاعدي. تمر أمامي نبال ولا تتركني فعلا. تعود لي كل مرة، فكم من نبال رأيتها مرة ترتدي قميصها المنقط نفسه، وأخرى تحمل عيناها الخضراوين، وثالثة تحمل جسدا على نفس قدها.

تعود إلي تقلّم أظافري وتخلع كل القفازات عن أصابعي وأنا أدور في هذه المساءات الكبيرة وأقول للجميع: هي حبيبتي من القمر. عندها أركض على كرة كبيرة كمهرج في هذا السيرك الكبير.

فنار عبد الغني

الخاتم المبهـر

بكل خفة كنت أحاول اختلاس النظر إلى خاتمها المُبهر الذي تزين به بنصرها العاجي. في الواقع لقد أبهجني خاتمها الأنيق الغريب الشكل وجذب انتباهي دون إرادة مني. لا أذكر أنني رأيت خاتماً بمثل هذه الروعة منذ أن تغيرت خريطة مفاهيمي للعالم القيمي التي جعلتني بدورها أمتنع عن الذهاب إلى سوق الذهب نهائياً.

كان خاتمها المُبهر من الذهب الأبيض، تتوسطه لؤلؤة بيضاء برّاقة متوسطة الحجم تحيط بها حبيبات ماسية لا تقل بريقاً عنها، وتتخذ هذه الحبيبات الماسية شكل وريقات زهرية تفتحت لتوها، فتبدو قطعة اللؤلؤ المشرقة وكأنها نبتت من داخل الزهيرة الماسية.

لم أكن أعرف السيدة الأنيقة صاحبة الخاتم، لكن يبدو أنها في منتصف عقدها الخامس، ويبدو أنها إنسانة عصامية قد تفوقت في تخطيها للطبقة المتوسطة منذ زمن طويل. كانت تجلس بجواري، طاولتها ملاصقة لطاولتي، وعندما التفتُ إلى الخلف، أرى وجهها الجميل المُقاوم للتعب دون أي فواصل.

لقد دُعِيتْ مثلي لحضور ورشة العمل الخاصة بالإنماء والتطوير. إنه لقاؤنا السنوي الثالث على التوالي. لم نتحدث مطلقاً من قبل. وعلى الرغم من أن ورشة العمل قد بدأت منذ أربعة أيام، إلا أنني لم ألتق بها إلا اليوم، بعد أن بدلت وصديقتها مكان جلوسهما.

يغير البعض أماكن جلوسهم في العادة لتجنب الشعور بالملل في مثل هذه المحاضرات التي باتت لا تضيف شيئاً جديداً على معارفنا السابقة، لكني اشعر بأنها مفيدة لأنها تجمعنا بزملاء عمل من كافة المحافظات، فنتبادل الخبرات معهم ونتعرف على ثقافتهم وأنماط حياتهم ونتشارك معهم بعض الآلام والهموم والأحلام.

وعلى الرغم من الحر الذي بات لا يطاق والمكيف القديم القليل النفع والذي لا يبلغنا نفعه بسبب الزملاء القادمين من القرى الجبلية والذين يتركون باب القاعة مفتوحاً عند خروجهم إلى الرواق الطويل لتناول القهوة الساخنة، فإن صديقة السيدة صاحبة الخاتم، كانت تتحين الفرص لإطلاق الدعابات أو لتمرير بعض كلمات من طقطوقة قديمة، ويبدو أنها من عشاق صباح.

وأنا بدوري لم أكن أتمالك نفسي من الضحك عندما تتسلل إلى مسامعي بعض تعليقاتها المُضحكة، فكنت التفت إليهما مبتسمة وأنتهز الفرصة لإلقاء نظرة خاطفة على الخاتم.

أحب الأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها وخاصة اللؤلؤ الذي ذكر في القران الكريم والعقيق الذي ذكر في حديث شريف. اللؤلؤ يشبّه بالقرآن أما العقيق فهو أول حجر شهد لله عز وجل بالوحدانية.

لقد احتفظت لسنوات عدة بخاتم من العقيق العسلي اللون، لكن للأسف الشديد فإن التعليقات المتعاقبة التي تلقيتها بسببه دفعتني لدفنه في صندوق خشبي، وخاصة تلك التعليقات التي اتهمتني بأني أنتمي لجماعة لا أحب ذكر اسمها، وغيرها من المضايقات.

سبحان الله خاتم من العقيق، ثمنه أقل من دولار، ابتعته من دكان يقع في قلب السوق الأثرية لمدينة صيدا، وكل بضاعة ذلك الدكان المخصص لبيع هدايا الحُجاج صناعة صينية، يصبح ذلك الخاتم مثار جدل وبلبلة الناس من حولي!

لقد خلعته واستبدلته بخاتم سبحة مصنوع من البلاستيك الأزرق، يحتوي على زر وشاشة صغيرة، عند الضغط على الزر، يظهر على الشاشة رقم يشير إلى

عدد التسبيحات التي قمت بها ويسجلها ويحتفظ بها. وحتى هذا الخاتم لم ينج بدوره من التعليقات، لكني لم أتخل عنه.

ارتفع صوت الآذان معلناً وقت صلاة العصر. صمتت السيدتان برهة، ثم وقفت السيدة المرحة بعد أن تناولت حقيبة يدها مخرجة منها قارورة دواء، قائلة وبصوت مرتفع: «يا جماعة من يريد دواء ضغط أو وجع راس أو مكملات غذائية لتحسين المزاج؟» ولما لم تلق جواباً من أحد، أخذت تبتلع من كل قارورة حبة دواء وكأنها في حلم.

أخرجتُ سجادة الصلاة المخصصة للسفر وغادرت إلى غرفة مجاورة، وعندما أديت صلاتي، عدت الى القاعة.

كانت السيدتان لا تزالان في حالة من المرح. وفيما كنت أسحب الكرسي للجلوس وأنا اسبح مستخدمة خاتم السبحة، استوقفتني السيدة صاحبة الخاتم قائلة:

= «ما شاء الله! لقد أديتِ الصلاة. أنا لم أصل منذ أربعة أيام. أنا وصديقتي ننام عند أقرباء لنا هنا في بيروت، وعندما نعود مساءً نستكمل السهرة معهم حتى يغلبنا النعاس. غداً عندما أعود للضيعة سوف أقضي ما فاتني من صلوات».

وابتسمت لي ابتسامة واسعة وطويلة، وسألتني بدهشة: «ما أجمل خاتمك! منذ الصباح وأنا أنظر إليه وأريد أن أسألك عنه».

زكي شيرخان

دقيقة صمت

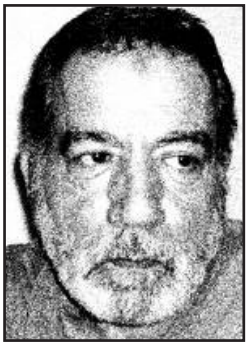

«أرح أباك. عد لتراه ثم ارحل ثانية. إنه يتألم. يرفض أن يموت قبل أن يراك. ارحمه».

لولا قولة أخيه لم يكن ليعود بعد كل هذه السنوات. في مجلس العزاء، جل من رأى من المعزّين طمرتهم الذاكرة أو كادت. كبر من كبر، وشاخ من شاخ. بدت النعمة على بعضهم، ولبس البؤس أغلبهم.

«هؤلاء، أولاد عمومتك»، «أولئك أصدقاء المرحوم الذين ظلوا على علاقتهم به» هذا ما كان يُهمس به لتنبيهه. «هذا شيخ العشيرة»، «أية عشيرة؟»، «عشيرتنا».

قضى أياما وهو يرى العجب ويسمع الأعجب.

= = =

في طريقهم إلى القرية التي ولد فيها الأب، والتي فشلت محاولات الأخ ثني إصراره على زيارتها.

= لن تعثر على البراءة التي تصر على وجودها في القرية.

= كيف استطعت أن تشخص رغبتي في زيارة القرية؟

تجاهل السؤال. استدار بوجهه نحوه، وابتسامة مستفزة رسمها متقصدا على شفتيه.

= انتبه للطريق، يمكنك الحديث دون أن تدير وجهك نحوي.

= ليس، في العادة، أن أخوض في خصوصيات حتى أقرب الناس لي، لكن يهمني أن أفهم التجارب الإنسانية التي يمرون بها. لماذا انفصلت عن زوجتك؟ أظنك كنت سعيدا معها وإلّا ما دامت هذه الزيجة لأكثر من عشر سنوات.

= صراع قيم؛ تضاد مفاهيم؛ فشل في تجاوز رواسب تحجرت في النفس؛ تصادم ثقافات.

= إن كنت تود البقاء في ساحة العموميات فاِنْسَ سؤالي.

= ظننا، أنا وطليقتي، أن اختلاف القيم والمفاهيم والثقافات لن تقف حجر عثرة أمام علاقتنا. ردمنا، أو هكذا ظننا، الهوة بكلمات الغزل، وإشباع الرغبة، والتجاوز عن صغائر المنغصات. كان يمكن أن تدوم العشرة لولا ما حدث في الحادي عشر من أيلول. لم تستطع، هي، أن تتحمل مصطلح «غزوة مانهاتن» لما تحمله من مغزى ديني. كل الأفكار العصرية التي كانت تؤمن بها أو هكذا تدّعي، كما الكُثْرُ، لم تُلجم مارد التعصب الذي ربّته أمها الإنجيلية داخلها. بدوري نفضت الغبار عما حُشِي به عقلي. وحتى لا أطيل عليك، وجدنا أن لا مفر من الانفصال. الخسارة كانت كبيرة، ولكن خسائر الاستمرار كانت ستكون أفدح.

= نكأتُ جراحك؟

= لا عليك. أود أن أسألك عن العشيرة وشيخها. على حد علمي أن والدنا لم يكن من المهتمين بهذا الأمر. لم تكن الانتماءات الفرعية مهمة بالنسبة له، دين، مذهب، طائفة، عشيرة. بل أكاد أجزم أنه كان ينبذها.

= بعد الغزو أنهار كل شيء. فشل من آلت إليهم الأمور من إيجاد منظومة حكم متماسكة. عمّت الفوضى، وضعفت المؤسسات، وصار الكل بحاجة للحماية من الكل. عاد الناس لأصولهم. وعادت التجمعات العشائرية بعد أن كادت تذوب في ظل الدولة المدنية. صار للعشيرة جيش مسلح حامٍ تحت إمرة شيخها مقابل التزامات يؤديها المنتمين لها. هكذا، وببساطة.

= فيما مضى، حاولنا أن نبني دولة على أسس عصرنا الذي نعيشه. كان همنا أن نتحول من كيان متخلف إلى كيان نامٍ. حلمنا أن نلحق بركب التقدم. ماذا جرى بعد قرن من الزمن؟ ها نحن نسرع الخطى للبدائية من جديد. لِمَ؟ أبسط مستلزمات الحياة الأساسية لم يعد بإمكاننا الحصول عليها، لماذا؟

= أحقا لا تعرف؟

= لا.

فوجئ أخوه بطلب لم يتوقعه.

= عد بنا. لم أعد أرغب بزيارة مسقط رأس أبي الذي لم تربطني به إلا عدة زيارات قمت بها حتى قبل أن أرحل بسنوات طويلة. أظنك محق؛ لن أجد ما أبحث عنه هناك. كل شيء اندثر، كل شيء.

= ما بك؟

= لولا إلحاحك، ومكانة أبي في نفسي ما عدتُ. صورة قديمة في ذهني رسخت منذ رحيلي، أريد ألّا تتشوه ولو أنها من الماضي، ولو أن الملامح فيها باهتة. أريد أن تبقى.

= نقلت لك رغبة الوالد رحمه الله الملحّة في رؤيتك.

= ربما كان إلحاحا من لدنه لأرى وطنا يحتضر.

= ألا تبالغ؟

التفت إليه. حدجه. آثر الصمت تعليقاً.

= = =

في المطار، وأمام بوابة الصعود إلى الطائرة، قرر أن يستقطع جزءا من الوقت المتبقي. نهض من على كرسيه. وقف دقيقة صمت على من رحلوا، وعلى ما رحل. على من يستحيل عودتهم، وعلى ما عودته أقرب إلى المحال.

هبة الأغا

موجة أخيرة لغزة

منذ وقت طويل لم أكتب لغزة، كانت تسكن في الغياب أكثر، وحين عدتُ إليها، تشبعت منها، تشبعت من الحضور المبالغ فيه، لكنني كلما أذهب للكتابة عن أي مدينة أخرى، أجدني أعود إلى غزة.

الصبية الحنطية التي تقف على شاطئ البحر، العصبية دائماً، المجنونة أكثر أوقاتها، العاشقة في لحظات الرحيل. إنها المكابرة حتى حين يعترف لها العشاق، ويرسمون على رملها الساخن قلوباً وهمية، ورسائل يرمونها في عرض البحر.

إنكِ تبعثرين كل شيء، تبعثرين حقائبنا المدرسية ونحن نطوي المسافات بين مدرستنا وبينك، تبعثرين كتبنا ودفاترنا وأقلام الرصاص الحادة، تأكلين بقايا شطائرنا اليابسة، ثم تصنعين فوق أسطح بيوتنا أرجوحة نلهو بها، فنطير في السماء ولا نعود.

كيف تتجاوزين كل تلك الأمنيات التي يكتبها الحالمون؟ هل قرأت الرسائل التي كتبها أصحاب الدكاكين الصغيرة المنتشرة بين بيوتنا كالنجوم الأرضية؟

هل سمعتِ عن امرأة حلمت بعجّانة بدلاً من يديها المهترئتين وهي تصنع الخبز لصغارها؟

هل كنتِ تعرفين أن الفتى الجميل قد التزم النظر إلى الحائط المشقق كل هذه السنين؟

أنا لا أفهم كلام السياسيين، ولا الشيوخ، ولا لجان التحكيم. إنني أرى فيكِ ما أراه في فنجان قهوتي الرابع والثلاثين، الذي شربته على شرفات بلكونتك المعرشة بالورد، والمطلة على الشاطئ الكسول، حين كنّا نصطاد الأمل ذات مرة.

أنا يا ريحانتي، يا أرجوحتي، يا صبّارتي، يا حقيبة أسراري، لا أحب إلا خشونة يديكِ، وبشرتك المتعبة، وأقدامك المشققة. أنتِ حين يطلع الصبح تكونين عصفورتي، وشمسي، وأريجي، واشتياق المسافات العابر.

في المرة الأخيرة، رأيتكِ ترتعشين من الخوف، على مقاهي الرصيف المبللة بالأمواج. كنتِ تشربين الشاي وعيونك على أحدهم وهو يرمي نفسه في البحر. هل تشعرين بالذنب؟ هل خفتِ على بقايانا وبقاياهم؟ سقطت من يدك كباية الشاي، وبكيتِ طول الليل، أعرف أنكِ شعرت بالعجز كثيراً.

أعترف لكِ كم نحن أنانيون، وصارمون، ومحافظون، وخشنون، وممثلون جيدون. أعترف لكِ كم نحن ساديون، وعابرون، ولكننا يا سيدتي حالمون، وعشّاق في تفاصيلنا اليومية.

أنتِ حبيبتي، وثروتي الكبيرة، أنتِ مخدتي المشجّرة، وأوراقي البيضاء، أنتِ صغاري وألعابهم العابثة، أنتِ مساحيق التجميل التي أخفي فيها وجعي، أنتِ دوامي اليومي، وأطباقي المعدة بسرعة الريح، أنت اشتياقي وجنوني، وأنتِ مروحتي، وباب بيتي، وأنت غطاء رأسي، وحقيبتي.

أحمد الوارث

السطح والقرار

اعتاد كل مساء، بعد صلاة المغرب، أن ينضم إلى الجالسين عند باب الجامع، بينما الفقيه وطلبته يتلون الحزب الراتب، وأحيانا يلتحق بباب الدكان الوحيد في قلب الحومة، حيث يقتعد صندوقا خشبيا، ويجلس متفرجا على لاعبي الورق، لتزجية الوقت، انتظارا لأذان العشاء.

بعد الصلاة، يملأ، بّا بوشتى؛ هكذا كانوا ينادونه، سطْلين من ماء العين، ثم يلتحق بالبيت، وقد يعرج على صديق له اسمه أحمد، فيدخنان قليلا من القنب الهندي قبل أن يغادر. رجل تجاوز عمره العقد السادس بقليل، لكنه ما زال منتصب القامة في مشيه، لا ولد له ولا زوجة، رأس ماله خرفان وأتان، ودجاجات وديوك حسنة الصوت. هو أيضا لسانه رطب، لا يتدخل في شؤون غيره ولا يجاحد حتى وإن هضم حقه. يحفظ كثيرا من الحكم، ومن الكلام المأثور، وإذا تغنى يردد رباعيات لشعراء الملحون.

يقول الفضوليون الذي نبشوا في سيرته، أنه ينحدر من قبيلة مجاورة، وأنه حل بالقرية مذ كان في ريعان الشباب، وتنقل بين المنازل يرعى المواشي، ولما أبان عن موهبته في العمل الزراعي، صار ذوو الأملاك والأصول الفلاحية يتهافتون عليه في بداية كل موسم فلاحي، لذا اشتغل (خمّاسا) لدى الكثيرين منهم.

هكذا سار به الحال عاما بعد عام. وذات مساء من صيف حار، بلغ المسامع،

على حين غرة، هدير شاحنة صغيرة لكنها قديمة، وهي تتسلق المسلك الجبلي الصخري، حتى إذا اقتربت من المساكن تعالت منها أصوات قرع الطبول والنفخ في الغيطة وزغاريد النسوة وتهاليل الرجال المرافقين للموكب، تعبيرا عن الفرح ودعوة عامة لحضور السهرة.

كثيرون كانوا يعلمون أن عروسا، قادمة من بعيد، ستزف لعريسها تلك الليلة، لذلك اضطر أهله لكراء المركبة بدلا من استعمال البغال.

شارك الناس الأسرتين فرحهما في سهرة العرس، وكان بّا بوشتى وصديقه من بين الحضور، سيما وأنهما من الجيران، وقد اتخذا لهما موضعا، في الصف الأخير من الجهة المخصصة للكبار المقابلة للجوقة، قريبا من الخابيات المملوءة ماء.

انغمس المدعوون في أجواء الغناء والطرب في محاولة منهم كسر الرتابة ونسيان التعب المتلاحق طيلة فصل الصيف الحارق. ولشدة الحر، لم تتوقف الرِّجْل في اتجاه الخوابي، علما أن الواجب يقتضي تقديم الماء وأحيانا الشاي مع الحلوى للحاضرين سيما للكبار منهم. كذلك فعلت امرأة من موكب العروس، فلعلها كانت مكلفة بإحضار الماء للعروس، فالحرص واجب في مثل هذه الظروف خوفا من كيد الحاسدات من بنات الدوار.

وفي الوقت الذي حنت المرأة هامتها، تريد أن تغرف الماء لتملأ جرتها الصغيرة، نظرت إلى با بوشتى، المرة الأولى، ثم أعادت النظر ثانية، وصرخت في وجهه: التهامي. التهامي. أنت هنا؟ ثم سقطت مغمى عليها، من شدة ما أصابها.

وقف با بوشتى مذهولا، ثم غادر المكان، بينما انضم صديقه إلى المحدقين بالمرأة، وحملوها إلى غرفة مجاورة، في محاولة لإسعافها، بعيدا عن عيون الناس.

قالت إحداهن: لعلها تعرضت لهزة أو سمعت من أهل العريس كلاما أزعجها، بينما روى صديق با بوشتى ما جرى من طق طق إلى السلام عليكم.

باتت المرأة لا تعي أهي في السماء أم في الأرض، وزوجها بالقرب منها خائف يترقب. ولما هلل المهلل معلنا أن حي على صلاة الفجر، استعادت المرأة وعيها، وقالت لزوجها دون مقدمات:

= «لقد رأيت أخي التهامي، رأيته البارحة بين المتفرجين. كان يجلس خلف الصفوف، قرب الخوابي. كان يحمل في يده كيت وكيت، ويلبس كذا وكذا».

اندهش الزوج من هول المفاجأة، وقال:

= «ماذا؟ أخوك التهامي؟ هل هذا معقول؟ هل جننت يا امرأة؟ ما الذي سيأتي بأخيك إلى هذه الجبال؟ ثم، ثم، كيف يمكنك التعرف على شقيقك بعد مرور كل هذه الأعوام؟ هذا على فرض أنه لا يزال على قيد الحياة. لقد غاب حينما كنا شبابا، وها قد بلغنا من العمر عتيا».

نظرت إليه زوجته بوجه مقطب، وقالت:

= «لا تقل هذا، لست مجنونة يا رجل. أستطيع التعرف عليه، ولو كان وسط الأربعين ممن يشبهونه».

في الصباح، انضم الزوجان إلى باقي أفراد الأسرة للسلام على العروس، وتناول طعام الفطور في حضرة مولاي السلطان، يتضاحكون أحيانا، ويستغربون من الخبر تارة أخرى. بعدئذ حضر صديق با بوشتى وزوجته، ومعهما هدية الصبْحِية لأهل العريس. وكانت مناسبة ليسأل أيضا عن حال المرأة، بل كانت فرصة لهذه الأخيرة أن تحاسبه في شأن صديقه. فكان جوابه:

= «اسمه بّا بوشتى، وليس التهامي، يا سيدتي، أنا أعرفه من سنين خلت».

لكنها ظلت مصرة على رأيها، وطلبت منه أن يرتب لها معه لقاء، في المساء، حين تخلو الطريق من السابلة.

كانت فرحتها عارمة حين بلغت منزل با بوشتى. قرع صديقه الباب، ولما تأخر عن الجواب، أعاد الزوج الطرق بشكل أكثر قوة. وحينما فتح تلكأ كثيرا في الترحيب بهم، حتى حسبوا أنه طاردهم.

فقال صديقه: «ألن تستقبل ضيف الله؟»

في الممر، وحينما جلسوا في الغرفة، كانت المرأة تشدد النظر إلى بّا بوشتى، ثم قالت:

= «الآن أيقنت أنك التهامي».

رد عليها قائلا: «ما هذا إلا إفك تفترينه. أنا لا أعرفك يا سيدتي».

= «لا تعرفني؟ أنا أختك. هل نسيت دوار المرجة؟ هل نسيت أختك السعدية؟ هانت عليك أمك التي توفيت كمدا؟ إني بجميع تفاصيل التفاصيل المتعلقة بصباك وشبابك خبيرة يا ابن أمي وأبي. مَنْ مِنَ الناس يعرفون قصة سبابة رجلك اليسرى؟ أنا أعرفها. ألم تفقدها بضربة شاقور وأنت تفَأَسَ جُذُوعِ أشجار يابسة بأمر من والدك؟ هيا انزع البلغة لنرى؟ هيا».

بقي العجوز متماسكا خلف سكوته، ثم في لحظة ما أحنى رأسه، ينظر أرضا. ولما رفعها، كانت الدموع تبلل لحيته. نظر إليها طويلا، ثم أرخى ذراعيه وضمها إليه حتى ارتوى، ثم قال: «نعم، أنا التهامي، هل رضيت الآن؟»

لم ترد عليه.

= «أنا التهامي الذي دفنتُه يوم خرجتُ من بيتنا منذ أربعين سنة، لم أكن أرغب في الارتباط بتلك الفتاة، نعم هي بنت عمي، لكني كنت أعرف قصتها مع رجل آخر تحبه، بينما ظللتم تتلكؤون حتى اختطفوا مني سمرائي أميرة الفؤاد. يومها، قررت أن أدفن التهامي الذي تعرفونه مع كل تلك الذكريات قبل أن أقدم على أية حماقات. لم يخطر على قلبي يوما أن أحدا سيأتي، وأنا في خريف العمر، إلى هذه الشعاب ليخرج التهامي الذي كنته، من غياهب الماضي الذي دفنته فيه».

إصدارات جديدة: خالد سامح المجالي

فصل من رواية الهامش

صدرت للصحفي والقاص الأردني، خالد سامح المجالي، روايته الأولى «الهامش» في نيسان (أبريل) 2020. وسبق أن صدرت له مجموعات قصصية منها: «نافذة هروب»؛ «نهايات مقترحة»؛ «ويبقى سراً»؛ «بين سطور المدينة». وترجمت بعض قصصه للإنكليزية والفرنسية. يعمل في الصحافة وهو حاصل على بكالوريوس العلوم السياسية من الجامعة الأردنية. روايته الأولى، «الهامش»، من إصدارات منشورات ضفاف ودار الاختلاف (نيسان/أبريل 2020). لوحة الغلاف للفنان العراقي سنان حسين. أدناه فصل منها، وتنشره «عود الند» باتفاق مسبق مع المؤلف.

في شقة الشميساني: صيفٌ آخر 2005

«هل يمكن أن يكون ذلك المكان البخيل عالمي الجديد؟»

ثمة تغيرات طرأت على حياة حازم، الكثير منها لم يكن متوقعاً، بينما ما يسميه الطبيب بـ«الهامش» يمور بتحولات عاصفة تعِد بفصل عربي جديد يتسع لمزيد من الجنون.

يتواصل العنف العبثي في العراق، ومزيد من الهاربين يصلون إلى عمّان، ثم ينتقلون إلى تيه الصحاري والمحيطات ورحلات الموت.

«هل كانت بغداد كافيةً لرسم حياتنا؟ الشوارع ما زالت مطبوعة بالطين والحياة، بينما عمّان -نافذة هروبنا- تبصقنا إلى ما وراء المحيطات بلا رغبة؛ بلا وداع أو حتى عناق مخادع».

كتب ذلك الشاعر العراقي فرج الحطاب عند قدومه إلى عمّان نهاية التسعينيات، والتي كانت محطته للهجرة إلى ما «وراء المحيطات»، وهذا ما ظل يحصل حتى بعد فك الحصار وانهيار حكم البعث. عمّان «نافذة الهروب». إلا أن بغداد أصبحت مطبوعةً بالدم وغبار الأحزمة الناسفة وآثار أقدام لكل وحوش الأرض. لبنان، أيضاً، يترنح تحت وطأة هجمات منتقاة أعقبت اغتيال رئيس وزرائه رفيق الحريري في شباط، ونذر حرب أهلية في غزة والضفة الغربية بين فتح وحماس. وحدها عمّان تمتص كل الصدمات وترقب بحذر حريق كل الجهات.

لماذا يشعر أنه بات رفيقاً لهذا الفصل الجديد من التاريخ؟ وكأنه يضع كفه بكفه مرغماً، ويسيران معاً في درب لا تعرف لها نهاية. هل كان من الضروري أن يحصل كل هذا لتتغير حياتي، أم إن ما حصل لم يترك أصلاً فيَّ ذاك الأثر الكبير؟ هل أنا واهم؟ وهل حقاً هو مجرد «هامش» كما قال الطبيب؟

= = =

قررت الجريدة في الصيف الفائت ترقيته وتعيينه مشرفاً على صفحة المقالات المترجمة، مع منحه علاوة إضافية قيمتها خمسون ديناراً، لم يكن معه في الصفحة سوى فتاة متخصصة في الترجمة من اللغة العبرية، رسم لها رئيس التحرير حدود ما تترجم من الصحف الإسرائيلية، وكانت هي على قدرٍ عالٍ من المهنية والذكاء، إضافةً إلى شاب آخر متخصص في الترجمة عن الإنكليزية لكنهُ لم يلبث أن غادر الجريدة بعد حصوله على عقد عمل في البحرين.

ضغط العمل، إضافةً إلى غلظة رئيس التحرير يصيبانه بالقلق والإحباط، لكنه قرر أن يهجر مضادات الاكتئاب إلى غير رجعة. هل كان قراراً يفتقر للتبصر؟ لا يدري.

لم يعد أبداً مقتنعاً بتلك السعادة المزيفة التي تجلبها الأدوية وتجعله في كثير من الأحيان سخيفاً مندفعاً بلا أدنى مبرر؛ اندفاعةً تصل به حد الحماقة أحياناً وتفقده الإحساس بواقعية الأشياء وبمشاعر الآخرين.

لن أعود إلى تلك الحبوب السخيفة، وليَعُد الاكتئاب ويصل إلى أقصى درجاته؛ ولأشعر بالذنب والتفاهة حتى النهاية، لا يهم أبداً؛ نعم، الحزن سخيف جداً لأن حبة دواء تهزمه، لكن السعادة التي تجلبها حبة الدواء ذاتها هي أكثر سخافةً منه، وليصعد التوتر إلى ما شاء.

ربما كانت النتيجة مريحة جداً؛ أجرؤ على صفع رئيس التحرير عاشق المناكدة والعناد الصبياني، أو أبصق بوجه سكرتيرته المتعالية بملامحها الخشبية المغلفة بقدر هائل من الماكياج الفاقع، أو ألقي من النافذة كمبيوتر موظف الأرشيف وأقراص الدروس الدينية التي ينبعث صوتها من مكتبه طيلة ساعات العمل.

يااااه، كم سيبدو ذلك ساراً. وقد أقابل، مصادفةً، ضابط الأمن الذي طردني من تظاهرة المسجد الحسيني وأمر باعتقالي. ستكون فرصة تاريخية؛ هو يعطي أوامر للعسكر عند بوابة مركز أمن المدينة أو يلتهم صحن كنافة عند حلويات حبيبة، ولربما يتصفح مجلة بقليل من الاهتمام عند كشك أبو علي، يحدق كل منا في وجه الآخر لثوانٍ، أتذكره أنا أولاً رغم ما قد يكون قد طرأ على هيئته من تغيرات، ربما ارتقى برتبة عسكرية، فيبدو أكثر ثقةً وعجرفةً وكبرياء، وتطفو على ملامحه آثار الراحة نتيجة زيادة مرتبه وتراجع مهامه الصعبة، سيتفتح وجهه وتبيض بشرته، كذلك سيظهر أثر الاسترخاء جلياً على جسمه بانتفاخ كرشه.

أمشي، عندئذٍ، بخطى ثابته نحوه، فأقبض عليه من ياقته ثم أصفعه فيصاب الجميع بالذهول عندها في مشهد سينمائي مثير؛ لا، بل إن الحياة كلها من حولي

ستتحول إلى فيلم سينمائي وأنا المخرج أقلب الأحداث كيفما أشاء. سأُسجن مرة أخرى بالتأكيد. لا مشكلة أبداً.

أي فائدة لكل تلك الأنواع من الأدوية، التي ما زال بعضها مكدساً في خزانتي، مرفقةً بشروحاتها وإرشاداتها؟ نعم، سأتصالح مع كآبتي إذا عادت؛ سأنتمي إلى قلقي وتهويماتي المرضية، فلا معنى أبداً للانتماء إلى عالم ينهار ويتداعى وأنا عاجزٌ عن فعل أي شيء.

= = =

سعى حازم لاستثمار الزيادة الطفيفة التي طرأت على راتبه الشهري في تحقيق حلم راوده طويلاً، لقد عاش سنوات شبابه التي مرت مع أهله في بيت بسيط في مدينة الزرقاء استأجره والده بعد تقاعده من الجيش ورحيلهم من إسكان الضباط. كان مضطراً طيلة تلك السنوات أن يتنازل عن جزء كبير من حريته في المنزل الضيق الذي يحويه هو ووالديه وإخوانه الثلاثة: يزن، وعلي، وخالد، وأختهم الوحيدة سارة، وهو كبيرهم.

مع دخوله العقد الرابع من عمره باتت فكرة استعادة ما فقد من حرية والتخلص من ساعات طويلة يقضيها قاطعاً الطريق بين عمّان والزرقاء أمراً ملحاً. من بين إخوته لم يرضَ أبداً أن يكون موجَّهاً كي يصبح باراً في نظر والديه، لا سيما أبوه ذو العقلية القاسية الميالة إلى التسلط، والتي لم تغادر معسكرات الجيش أبداً. لم يعنِه كثيراً أن يتبوأ مكانة اجتماعية كبيرة وسط عشيرته ومحيطه.

لم يكن نافراً من حياته مع أهله تماماً؛ ففيها قدر من الحميمية يعينه على الاكتئاب في أحيان، إلا أنها كانت تضيق، يوماً بعد يوم، على طموحاته وآماله وإيقاعات الحياة التي طالما تخيلها وتمناها؛ لقد عانى عقم تلك الحياة وفقرها. المنزل الصغير لا يتسع لحلمه بصديقة تزوره بين الحين والآخر، أو رفيق يخوض معه نقاشاً سياسياً على مائدة مختصرة. لم يكن ظرف المكان يفتح له أي أفق لكتابة نص شعري آخر الليل.

صحيح أن موجات الكآبة والقلق التي طالما انتابته فعلت هي الأخرى فعلها في ذلك، وكانت تحد قدراته اللغوية وتربكها، إلا أن كتابة الشعر رافقته كطقس سري لذيذ. لم يطلع أحداً من أصدقائه على نصوصه التي كان يلوذ أحياناً في الليالي الحارة بسطح المنزل لكتابتها تحت ضوء القمر الساطع الذي يتحدى ليل الزرقاء البهيم، وسيحملها معه مثل سر أو فضيحة إلى مسكنه الجديد. كذلك سيحمل معه الكثير من الصور والذكريات الحميمة، وسيهرب من أخرى.

ليس سهلاً أن ينسى صوت أبيه عندما يصحو لصلاة الفجر وهو يقرأ سورة ياسين بصوت مرتفع يعبر الأرجاء، يبدد سكون المنزل ويصل إلى أسماع الجيران. كان أبوه يزداد تديناً وتعلقاً بالماورائيات، وخلال السنتين الفائتتين، بصورة خاصة، بات يتحدث كثيراً عن الموت ويُذكّر به وبما ينتظرنا بعده، وعن علامات الساعة التي كان يقول دوماً إن سقوط بغداد واحتلال العراق على رأسها؛ لقد بات يتحدث بيقينية مطلقة كَوَلِيٍّ تقيٍّ يتلقى وحياً ربانياً ويرفض النقاش فيه.

الطارئ من تطورات على حياته لن يمحو من ذاكرة الطفل الزرقاوي ما رسخ فيها، سيبقى وفياً لذكرى بيتهم القديم وصوت الطابور الصباحي في معسكر الجيش المجاور، وكأن أقدام الجنود تعزف مع إطلالة كل صباح لحن نصر على ليل الزرقاء الصحراوي الموحش، وتعلن حتمية نهار آخر يدب بالنشاط والصخب وفوضى الحياة والناس.

كيف لذاكرته أن تسقط من ألبومها صورة عبير؟ وجهها المستدير بمسحته الملائكية؟ براري صدرها المغموسة بلون برونزي مثير؟ ذنبة الفرس التي تتراقص مع خطواتها العجولة إلى المدرسة كل صباح؟ الوحمة الصغيرة أسفل رقبتها ما زالت في ذاكرته شهيةً ومثيرة، وغزيرة الإيحاءات. عبير التي كانت تسكن على مقربة من بيتهم كانت أول فتاة أحبها وتعلق بها، واختبر معها مشاعره. سعى للزواج منها وهو ما زال طالباً في الجامعة فصدته أمها.

= اسمع، إياك أن تفكر في عبير، ابعد عنها ولا بعملك مشكلة كبيرة وبخرب بيتك.

استوقفته يوماً أثناء عودته من الجامعة، وكادت أن تضربه أمام الجميع، بعدها أرسلت له عبير رسالة مع أخته:

«خلص حازم، أرجوك خلينا نبعد، أمي مستحيل توافق على زواجنا، وبتقول مستحيل أزوج بنتي لواحد آخرته أستاذ مدرسة».

بعد تخرجه بأشهر، ازدحم الحي ذات نهار تموزي حار بعشرات السيارات الفارهة، تزوجت عبير من أحد أقاربها، مليونير يعمل مع أحد الأمراء السعوديين، ستسافر معه إلى الرياض ولن يراها بعد ذلك حتى لو زارت أهلها باستمرار؛ فالوجه الملائكي، والجسد البرونزي الفاتن، والوحمة الساحرة، والشفتان السكريتان، وكل ما بهره فيها سيختفي خلف حجب سميكة وداكنة: عباءة، وخمار طويل، وقفازين. لن يظهر منها شيء بعد ذلك، كان هذا شرط السيد المليونير. لن تختفي عبير من ذهنه، تغلغلت صورتها في أعماق ذاكرته حيث فوضى الأحلام الجميلة التي لم ينل منها شيئا.

= = =

بعد بحث استمر لأكثر من شهر، عثر على روف صغير في الشميساني، خلف فندق الماريوت بقليل. كانت أسعار الإيجارات تتصاعد بجنون متناغم مع جنون الإرهاب المستعر في المنطقة. عشرات الآلاف من العراقيين الأثرياء حطوا رحالهم في عمّان، والشقة التي لم تكن قيمة إيجارها الشهري تصل لمئة دينار أصبحت -بعد سقوط بغداد- تستأجر بمئتين وأكثر. كان زمن «أثرياء الحرب» بامتياز، ولطالما قرأ عنه في كتب التاريخ.

«يا بيه العراقيين رفعوا كل حاجة. الأسعار بقت نار، احمد ربك إنك لقيت أوضة وصالون بمية وخمسين دينار بس»، قال له حارس العمارة وهو ينظف البيت، وأردف بمزيد من التفاصيل:

«تصدق بالله يا باشا؟ الشقة اللي في الدور الأول كان مأجرها راجل أردني بمية وخمسين دينار، سافر قبل شهرين على أمريكا ودلوقتي سكنها واحد

عراقي لوحده بتلتميت دينار، حاجه ولا في الخيال. ناس نازلة عليهم الفلوس زي المطر. ما بيسألوش خالص، واحنا الغلابة راحت علينا».

قاطعه حازم:

= يا بيه، يا باشا! لأ يا سيدي، أنا مش بيه ولا باشا، أنا كمان غلبان زيك.

= لا مؤاخذة، هوه إنت بتشتغل ايه؟

= صحفي ومترجم.

= يا سلام! بقى إنت باش صحفي قد الدنيا وبتقول عن روحك غلبان؟

ولإيمانهم الشديد بالحسد، لا بد أن ينهي الكثير من المصريين تعبيرهم عن الإعجاب بـ» بسم الله، ما شاء الله، الله أكبر!»

يضحك حازم، ويخرج إلى الشرفة للتمعن في المشهد من أعلى السطح؛ إطلالة رائقة على شوارع الشميساني الهادئة، أبعد قليلاً مدينة جديدة أيقظوها من سباتها فجأة، وأمروها بالالتحاق بركب المدن الحديثة.

هناك في الفضاء المقابل عمارات العبدلي التاريخية تُهدم تحضيراً لمشروع ضخم يتبناه أبناء الحريري - كما يقول كل أهل عمّان. تركب مع سائق التكسي فيحدثك عن «مشروع الحريري»، وكذلك سائقو الحافلات، وأصحاب المحلات التجارية، والزملاء في العمل. الجميع يتحدثون عن مشروع جديد تزرع فيه قطعة من دبي في عمّان حيث الأبراج متعالية تنشب أظفارها في كبد السماء وتُتعب رقاب المارين. في الصحف، وعلى الإنترنت حملات ترويجية للمشروع، ورسومات افتراضية بحمائم بيضاء تحلق عالياً واعدةً الناس بالرخاء والرفاهية والسعادة في أكثر صورها حداثةً ومواكبةً للعصر.

= «أنا خلصت يا بيه. عاوز حاجة تانية؟» يصرخ حارس العمارة من الداخل، فيرد حازم:

= «لا، شكراً».

= «لو عاوز أي حاجة تانية خد رقم موبايلي ورنلي في أي وقت، اسمي حسن يا بيه».

يغادر حسن الشقة سعيداً بعشرة دنانير لقاء جهده وخدماته.

يجول حازم بنظره في أرجاء المكان: غرفة نوم وصالون صغير بأثاث متوسط الحال، سرير مفرد وخزانة للملابس، طقم كنب جلد وتلفزيون بقنوات العربسات فقط، مطبخ صغير ملحق بالصالون، وحمام مع بانيو مختصر لا يكاد يتسع لطفل. هل يمكن أن يكون ذلك المكان البخيل عالمي الجديد؟

السرير لا يتسع إلا لجسد واحد وكذلك البانيو، يذكرانني بوحدتي وبكل الضرورات الملحة التي أفتقدها، لكنه جيد على أي حال، ويكفي أنني اخترته وسألقى فيه حياة جديدة.

سيسعى في لاحق الأيام لتغيير حياته، ويتهيأ لما سيأتي. البيت الضيق ستأتلف فيه حياة شخصية هادئة لا يعوزها التبصر والتفكير العميق في ما سيأتي، ورغبة في الحرية حلم بها وسلبتها منه الظروف، وآمال راودته طويلاً، وبوهيمية لا تصل إلى التفلت تماماً، تفلت لم يكن قد أعد نفسه له، وحرية لا يخلو التفكير فيها من قلق، إلا أن الهدوء الذي يلف المكان الجديد، وبياض شرشف السرير، وزجاجة النبيذ التي استهل بشرائها دخول جنته الجديدة، والحرارة المنبعثة من جدران تنفذ منها سخونة النهار وحتى ما تبقى من رائحة رطوبة.

كل ما في تلك المساحة المكثفة يفرض ضرورة حتمية لالتقاء جسدين ملتهبين، ويثير الرغبة في تحقيق استيهاماته الجسدية، ولقاء امرأة تغير مسار حياته، روحٌ أنثوية كانت كل ما يحتاجه ليبدد رتابة وشح حياته العاطفية المريع.

بعد دقائق عاد الحارس ووقف بباب الشقة الذي ترك مفتوحاً.

«يا بيه، إنت نسيت كتبك تحت. بمدخل العمارة».

طلب منه حازم أن يحضرها فوراً ففعل بسرعة؛ أربعة صناديق كرتونية كبيرة شرع مع الحارس بفتحها ونقل محتواها على رفوف صغيرة علقت فوق التلفزيون مباشرة، فيها بعض ما أثر بوعيه ونظرته إلى الحياة والمجتمع، وعدد كبير من الأعمال الأدبية منحته حساً إبداعياً عبر عنه بعدد قليل من القصائد في دفاتر وأجندات صغيرة.

شرع بصف الكتب عشوائياً وعلى عجل: روايات ألبير كامو «الغريب» و«الطاعون» وكتاب «أسطورة سيزيف»، «رأس المال» لكارل ماركس، وروايات عبد الرحمن منيف: «مدن الملح»، و«شرق المتوسط»، و«قصة حب مجوسية»، وأشعار مترجمة لآراغون ولوركا، وروايات ماركيز ومذكراته، ومجموعات قصصية لزكريا تامر: «دمشق الحرائق»، و«النمور في اليوم العاشر»، وروايات غسان كنفاني: «رجال في الشمس»، و«عائد إلى حيفا»، وغيرهما، والمجموعة الكاملة لأعمال غالب هلسا، ومجموعة أخرى لمسرحيات سعد الله ونوس، وكتب جامعية بالإنكليزية تتضمن مسرحيات لشكسبير، وقصائد ت. س. اليوت، وكتب سياسية مختلفة لمحمد حسنين هيكل، وغيرها الكثير من الكتب التي لم تتسع لها الرفوف فركنها أسفل السرير.

كان حازم قد تعلق بالقراءة منذ أن كان في المرحلة الإعدادية، حين استعار كتب الأشعار والروايات من مكتبة المدرسة المتواضعة قبل أن يتعرف على مكتبة عبد الحميد شومان في المرحلة الثانوية، ويتكبد عناء زيارتها أسبوعياً من الزرقاء إلى مقرها القديم في حي الشميساني، حيث يسكن الآن. لقد كانت رحلة بين عالمين مختلفين تماماً، استعاد تفاصيلها أثناء بحثه عن شقة في ذلك الحي المخملي الراقي غرب عمّان، حي الفتيات المدللات بسياراتهن الفارهة، ومطاعم الوجبات السريعة التي لم يكن قد رآها إلا في الأفلام والمسلسلات الأميركية.

الأولاد، أيضاً، في الشميساني كانوا مختلفين بشورتاتهم وتقليعات شعرهم الغريبة والأقراط في آذانهم، كان يرقبهم من النافذة وهم متجمعون يأكلون الآيس كريم في «فروستي» المجاور للمكتبة. شنت جريدة شيحان في تلك الفترة حملةً ضدهم بتحقيقات أسبوعية سطحية ومثيرة تعوزها المهنية وترتكز على خطاب تحريضي وقصص أطلق الصحفيون فيها لخيالهم العنان كي يقدموها وجبةً تشبع شغف القراء وفضولهم، وتجذبهم لشراء الصحيفة بعناوينها البراقة المنتشرة في كل أرجاء المدينة.

لقبتهم شيحان بـ«الطنطات»، وعلى هداها سارت باقي الصحف الأسبوعية التي وجدت لها مواقع بارزة على أرصفة المدينة، وهي -إذ تكشف الكثير من خبايا المجتمع- تفبرك كذلك الكثير من الحكايا استجداءً لمزيد من القراء والإعلانات التجارية، مستفيدةً مما منحته عودة العمل بالدستور وإنهاء الأحكام العرفية من حرية نشر وتوزيع وخيال هُيأت له تربة خصبة جديدة فاستُثمر في التكسب والاسترزاق.

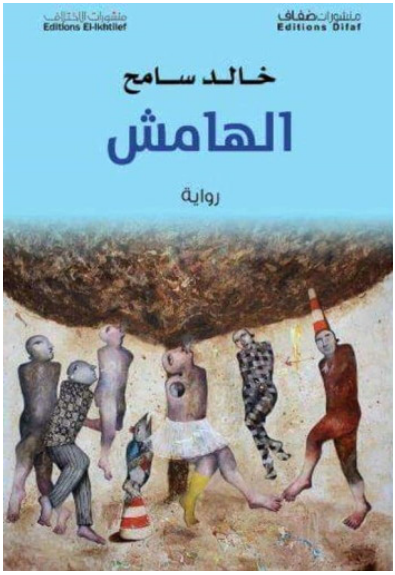

لم يكن ليرى مثل كل ذلك في الزرقاء. بدا الشميساني له حينئذٍ بقعة هاجرت من ولاية أميركية واستقرت في عمّان، إلا أن مظاهر الترف والحرية والحياة الرغيدة في تلك البقعة لم تغرِهِ بقدر ما أغرته المكتبة بما فيها من كتب فكرية وأدبية وعلمية قيمة، فكم شعر بالانتماء إلى أجواءها الحميمية الدافئة المطلة على كل تلك المشاهد والحكايا الغريبة.

===

النص الكامل للفصل منشور في موقع المجلة على الرابط التالي:

https://www.oudnad.net/spip.php?article3485

مختارات: محمود درويش

أنقذونا من هذا الشعر

أدناه مقتطف من مقالة للشاعر الفلسطيني الراحل، محمد درويش، منشورة في العدد السادس (10/1982) من مجلة «الكرمل» الفصلية.

.

إنني لا أعرف ما هو الشعر. ولكنني بقدر ما أجهل هذه الماهية أعرف تمام المعرفة ما ليس شعرا. ما ليس شعرا، بالنسبة لي، هو ما لا يغيّرني؛ ما لا يأخذ مني شيئا ولا يعطيني لوعة أو فرحا؛ هو ما لا يقدم لي أحد مبررات وجودي وإقامتي على هذه الأرض؛ هو ما لا يبرهن جدواي وقدرتي على الخلق؛ هو ما لا يقدم لي الوجود في كأس ماء ينكسر في اختصار؛ إن إدراكي لما ليس شعرا هو طريقتي في الاقتراب من إدراك الشعر، لأننا بالواضح نفسر الغامض، وليس العكس.

من هنا نصرخ: ماذا جرى للشعر؟ ماذا؟

إن ما نقرؤه، منذ سنين، بتدفقه الكمي المتهور ليس شعرا. ليس شعرا إلى حد يجعل واحدا مثلي، متورطا في الشعر، منذ ربع قرن، مضطرا لإعلان ضيقه بالشعر. وأكثر من ذلك يمقته، يزدريه، ولا يفهمه.

إن العقاب الذي نتعرض له يوميا، من جراء هذا اللعب الطائش بالشعر، يدفعنا أحيانا إلى قبول التهمة الموجهة إلى الشعر العربي الحديث. ولكن هل يكفي أن يتبرأ كل شاعر، بطريقته الخاصة، لينجو من الاتهام العام؟ ماذا يفيد

التبرؤ مما ليس يشبهك إلى درجة تشبهك؟ وهل جرّب أحد أن يرى أعضاءه في أجساد الآخرين، دون أن يتحمل المسؤولية عن سهولة تفكيك جسده؟

على الشعراء، والنقاد إن وجدو، أن يدخلوا في عملية حساب النفس العسير، فهذه هي فترة النقد الذاتي، إذ كيف تسنى لهذا اللعب العدمي أن يوصل إلى إعادة النظر والتشكيك بكامل حركة الشعر العربي الحديث، ويغرّبها عن وجدان الناس إلى درجة تحولت فيها إلى سخرية؟

إن تجريبية هذا الشعر قد اتسعت بشكل فضفاض، حتى سادت ظاهرة ما ليس شعرا على الشعر، واستولت الطفيليات على الجوهر لتعطي الظاهرة الشعرية الحديثة سمات اللعب، والركاكة، والغموض، وقتل الأحلام، والتشابه الذي يشوش رؤية الفارق بين ما هو شعر وما ليس شعرا.

قد نهدئ من روع الناس بالإشارة إلى أن تاريخ الشعر حافل بالتطاول والادعاء، لولا أن تراكم الركاكة، واللاشيء، وضياع المفاهيم الخاصة بالشعر الحديث قد أضاعت من الناس مفاتيح القراءة والتمييز، وبخاصة أن الشعر العربي الحديث لم يحقق، بعد، شرعيته الشعبية، إذا جاز التعبير، ورسوخه في الوجدان العام، وثباته في تاريخ التذوق، مما يجعل هيمنة نماذجه الرديئة مدخلا لإعادة النظر في التجربة كلها.

[...]

قلت لناقد كبير: لماذا لا تتدخل؟ لماذا لا تكرس طاقتك النقدية الكبيرة لدراسة الشعر الحديث في محاولة لاستنباط بعض القواعد والضوابط، فتساهم في وضع حد لهذه الفوضى؟ قال: لا أفهم. ولا أستطيع القول إن معظم هذا الشعر، من الرواد إلى النقباء إلى الأنفار، ليس شعرا. وأخشى التعرض لتهمة المحافظة من النقاد الجدد، الذين يدرسون القصيدة الغامضة بمقال أشد غموضا، لأني لا أؤمن بالبنيوية بخاصة، ولا أتقن تخطيط أسهمها وأقواسها وخرائطها.

ماذا جرى للشعر، إذا، ماذا جرى؟ إن سيلا جارفا من الصبيانية يجتاح حياتنا ولا أحد يجرؤ على التساؤل: هل هذا شعر؟

نحن في حاجة للدفاع ليس فقط عن قيمنا الشعرية، بل عن «سمعة» الشعر الحديث الذي انبثق من تلك القيم ليطورها لا ليكسرها، حتى شمل التكسير، بدافع الإدراك أو الجهل، اللغة ذاتها. فكيف تطور الحداثة الشعر بلا لغة، وهي حقل عمل الشاعر وأدواته؟

هل شرح لنا الذين لا يعرفون لغتهم ماذا يعنون بالمصطلح الدارج «تفجير اللغة»؟ وهل أوضحوا لنا مفهوم «الموسيقى الداخلية» في إصرارهم على احتقار الإيقاع؟

ولماذا لا تأتي الموسيقى الداخلية إلا من النثر؟ لماذا تعجز ثروة الشعر العربي الإيقاعية عن إنتاج موسيقى داخلية؟ وقبل ذلك ما هي، بالضبط، الموسيقى الداخلية، وما هي الموسيقى الخارجية؟

= = =

رابط للاطلاع على المقالة كاملة:

https://archive.alsharekh.org/Articles/28/2950/88959/10

عن لوحة الغلاف

الفنان تشارلز بيرس

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي الأميركي، تشارلز سبريغ بيرس، (Charles Sprague Pearce). عنوان اللوحة: المجوهراتي العربي (The Arab Jeweler). تاريخها التقديري 1882. مقتنيات متحف ميتروبوليتان للفنون، نيويورك.

مختارات: عدلي الهواري

اتحاد الطلبة المغدور

مؤامرة تجميد الهيئة الإدارية

أدناه مقتطف من كتاب عنوانه «اتحاد الطلبة المغدور»، الذي يوثق فيه مؤلفه، د. عدلي الهواري، تجربة تأسيس وانهيار فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الولايات المتحدة في النصف الأول من عقد الثمانينيات. «اتحاد الطلبة المغدور» يتميز بأنه من الكتب القليلة التي تسلط الضوء على دور أحد الاتحادات الجماهيرية في دعم القضية الفلسطينية، ومن الكتب الرائدة في توثيق تجربة ثاني أكبر فرع للاتحاد في العالم. صفحات المقتطف 82-86.

= = =

زاد عمق التباين في وجهات النظر بين مؤيدي تيار فتح بعد حدوث الانتفاضة/الانشقاق. وبعد صدور «الحقيقة» بدأ تبلور تيارين، ومحاولات إقصاء من اعتبر مؤيدا لما جرى في فتح، وبدأت أيضا عملية استهداف الهيئة الإدارية للاتحاد، فممثلو تيار فتح فيها كانوا أغلبية أعضاء الهيئة، ولكن بعد تبلور تيارين، لم تكن الأغلبية بين الأعضاء الستة الذين يمثلون تيار فتح من التيار المؤيد للقيادة.

لم يكن من الصعب على من يتمتع بتأييد أغلبية أعضاء الاتحاد في الولايات المتحدة أن يتمكن من تغيير مسار الاتحاد وهيئته الإدارية وبرامجه وطبيعة

نشاطاته من خلال عملية ديمقراطية تحدث كل سنة، وأقصد الانتخابات الدورية لاختيار لجان الوحدات، ومندوبيها إلى المؤتمر السنوي، حيث تعتمد البرامج وتنتخب الهيئة الإدارية.

وبالأسلوب الديمقراطي كان ممكنا استبدال كل أو بعض أعضاء الهيئة الإدارية، دون التأثير على عمل الاتحاد أو وجوده. ومن المفارقات أن ما أشرت إليه في حديثي عن المؤتمر التأسيسي حول ما قيل عن تهديد أنصار فتح بحل الاتحاد إذا لم يحصلوا على أغلبية أعضاء الهيئة الإدارية، قد طبق بصيغة معدلة، ولكن ليس في سياق خلاف بين تيار فتح وتيار آخر، بل في سياق خلاف داخل فتح.

لقد أخطأ من هدد في المؤتمر التأسيسي بحل الاتحاد للحصول على الأغلبية في الهيئة الإدارية، فعندما عاد مؤيدو فتح إلى مدنهم وجامعاتهم، كثفوا جهودهم من أجل تحقيق نتائج أفضل في المؤتمر الذي بعده، وكان لهم ثلثا مندوبي المؤتمر الثاني، والثلث الثالث لفصيلين متحالفين عادة. وبفضل هذه الأغلبية، حصل مؤيدو فتح على ثلثي الأعضاء في الهيئة الإدارية أيضا، وتكرر هذا النجاح في المؤتمر الثالث. ونظرا لتوفر المسار الديمقراطي، لم تكن هناك حاجة للجوء إلى أحد خارج الولايات المتحدة للحصول على أغلبية في الهيئة الإدارية في عام 1980، وكذلك الأمر بعد ثلاث سنوات.

لكن الاستقواء بالهيئة التنفيذية حدث فعلا بعد الانتفاضة/الانشقاق في فتح. وتولت الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين مهمة عرقلة العمل الديمقراطي داخل فرع الاتحاد في الولايات المتحدة لضمان وضعه في أيدي هيئة تكون الأغلبية فيها ممن يؤيدون القيادة مهما فعلت وقررت، وبدون تعاون مؤيدي الجبهتين الشعبية والديمقراطية إذا استلزم الأمر ذلك.

العرقلة بدأت تدريجيا، والخطوة الأولى كانت برفض التعديلات التي تبناها فرع الاتحاد في مؤتمره الثالث، رغم أن المؤتمر تم بحضور زهير الوزير، وهو أمين سر الهيئة التنفيذية، وشقيق خليل الوزير (أبو جهاد) القائد العسكري في حركة

فتح، أي أن الإشراف على المؤتمر لم يكن من شخص غشيم، أو بعيد عن القيادة. مرت ستة شهور قبل أن ترسل الهيئة التنفيذية قرارا بشأن قبول التعديلات أو رفضها، وجاء الرد بعد رسالة تذكير من الهيئة الإدارية. وفي رسالة حملت تاريخ 28 حزيران (يونيو) 1983، أبلغت الهيئة التنفيذية فرع الولايات المتحدة برفض التعديلات، بالصيغة التالية:

نذكركم بأن هذه اللائحة موحدة لكافة الفروع لا يجوز التعديل عليها تحت أي ظرف من الظروف، إلا في بعض الأمور التي تخص الساحة لتنشيط العمل في الاتحاد بحيث لا تتعارض مع مواد اللائحة الداخلية المقرة. ويترك لممثلي فرعكم للمؤتمر الوطني التاسع [الجزائر؛ شباط (فبراير) 1984] بالنقاش داخل المؤتمر لتعديل بعض المواد المقترحة من قبلكم والذي له الحق بالتعديل والتغيير في أي مادة للائحة الداخلية.

ووصلت رسالة ثانية من الهيئة التنفيذية تحمل تاريخ 12 آب (أغسطس) 1983 تطلب فيها من الهيئة الإدارية «طباعة أو تصوير هذا الكتاب إضافة إلى البيان المرسل حول اجتماعات المجلس المركزي الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية وإرساله إلى كافة الوحدات في فرعكم واتباع هذه الطريقة بصفة مستمرة حيث سترسل إليكم نسخة من المواد الصادرة والتي يهمها إيصالها إليكم على أن تقوموا بإيصالها إلى كل الوحدات وليطلع عليها كل أعضاء الجمعية العمومية لفرعكم».

وفي رسالة أخرى تحمل تاريخ 27 آب (أغسطس) 1983، أعادت الهيئة التنفيذية تذكير فرع الولايات المتحدة بأن تشكيل مجلس متابعة «يتعارض تماما واللائحة الداخلية للفروع ودستور الاتحاد وخاصة أن مثل هذا المجلس لا يمكن تشكيله إلا بموافقة من المؤتمر الوطني التاسع»، وأضافت «أن اجتماعات مثل هذا المجلس تكون غير دستورية». مجلس المتابعة لم يكن عقد اجتماعات منذ انتخابه انتظارا لقرار من الهيئة التنفيذية بشأن قبول أو رفض التعديلات بما فيها تشكيل مجلس المتابعة.

عقد المؤتمر الوطني التاسع للاتحاد في الجزائر في شهر شباط (فبراير) 1984، ولا أدري كم من مندوبي فرع الولايات المتحدة شارك فيه، هذا إن شارك أحد. وبقدرة قادر، تضمن تقرير الهيئة التنفيذية للمؤتمر اتهامات للهيئة الإدارية لفرع الولايات المتحدة. وعددت رسالة من الهيئة التنفيذية تحمل تاريخ 8 آذار (مارس) 1984، أربعة اتهامات:

(1) عدم توزيع «بيانات ومواقف الاتحاد الصادرة عن الهيئة التنفيذية على وحدات الفرع».
(2) قيام الهيئة الإدارية بمصادرة «جزء كبير من صلاحيات وأعمال الوحدات إلى درجة الاعتراض على أي أدبيات توزعها أي وحدة. مع العلم أن موقف الوحدات ملتزم بالخط السياسي للمركز، بعكس الوضع تماما مع الهيئة الإدارية في الآونة الأخيرة».
(3) «اتخاذ مواقف صادرة عن الفرع (الهيئة الإدارية) تتعارض مع الخط السياسي للاتحاد والمواقف المركزية المعلنة عنه».
(4) «تشكيل مجلس متابعة للفرع منبثق عن المؤتمر القطري (السنوي) وهو الأمر المخالف للائحة الداخلية».

وبناء على تلك الاتهامات الأربعة، قالت الهيئة التنفيذية في رسالتها إن المؤتمر الوطني التاسع كلفها بتنفيذ الإجراءات التالية:
أولا: تأجيل إجراء انتخابات لجان الوحدات والمؤتمر السنوي للفرع.
ثانيا: إرسال وفد للقيام بدراسة ميدانية لأحوال وأوضاع الفرع ووحداته واتخاذ ما يلزم بخصوص العضوية.
ثالثا: أن تعمل الهيئة التنفيذية بعد الاطلاع على الدراسة المقدمة من الوفد بالعمل ميدانيا لإزالة جميع العقبات أمام نشاط وفعالية الفرع.

الاستنتاجات الأولية مما ورد في الرسائل المشار إليها أعلاه توضح أن اتحادا له فروع في مختلف أنحاء العالم يدار كما لو كان فرعا في دولة عربية صغيرة،

كلبنان مثلا، يمكن إدارة عمل وحداته وفق لائحة داخلية موحدة. ومع أن رسالة الهيئة التنفيذية الأولى أعلاه تجيز تعديلات غايتها تسهيل العمل، إلا أن الهيئة التنفيذية تحتكر حق تحديد التعديل الذي يسهل العمل، وهي في موقع جغـرافي لا يمكنها من ذلك، فتعديل يؤدي إلى تسهيل عمل فرع مصر مثلا، قد لا يكون مناسبا لفرع روسيا.

كان لفرع الولايات المتحدة وضع لا يشبه وضع فـرع آخر إلا إذا كان في دولة كبيرة بحجم الولايات المتحدة التي تتكون من خمسين ولاية، وساحلها الشرقي يبعد عن الغربي أكثر من خمس ساعات في الطائرة. والتجربة المستندة إلى الفترة التأسيسية وما بعدها بينت الحاجة إلى ترتيبات إضافية غايتها تسهيل العمل. وفكرة تشكيل مجلس إداري (سمي مجلس متابعة) مستوحاة من هيكل الاتحاد نفسه، الذي له هيئة تنفيذية ومجلس إداري.

إضافة إلى ما سبق، جردت الهيئة التنفيذية إرسال أمين سرها زهير الوزير للإشراف على المؤتمر الثالث من أي قيمة، فهو أوفد لضمان أن تسير الإجراءات بشكل سليم، وكان بيده حق فيتو، ولكنه لم يستخدمه، وهذا يعني أن الإجراءات كانت سليمة، والإجراء الطبيعي في حالة كهذه توصيته باعتماد التعديلات، ثم موافقة الهيئة التنفيذية عليها رسميا.

في التراجع عن قبول التعديلات ضرب لمصداقية الموفد، زهير الوزير، كفرد، ومصداقية الهيئة التنفيذية ككل، فهي مارست الإشراف على المؤتمر الثالث ومجرياته من خلاله، ولكنها تراجعت عن الالتزام بما ترتب على هذا الإشراف.

من الاستنتاجات الأخرى أن الهيئة التنفيذية تقلص أدوار الهيئة الإدارية لفرع الولايات المتحدة إلى دور ساعي البريد، أي توزيع الرسائل وحسب. لم تكن الهيئة الإدارية تحجم عن توزيع أي مادة تصلها من الهيئة التنفيذية، والفرع زود مجلة «فلسطين الثورة» بعناوين الوحدات. وقد كانت الهيئة الإدارية تحرص على التزام أنصار كل الفصائل بمواقف منظمة التحرير ومواقف

الاتحاد عامة وفرعه في الولايات المتحدة عندما تكون البيانات أو النشرات صادرة باسم الوحدات.

وبالنظر إلى أن ثلاثة تيارات تعمل معا في هيئة إدارية واحدة، لم تتخذ الهيئة الإدارية موقفا مما يجري في فتح، وبالتالي يحق لها أن تعترض على أدبيات تصدر باسم الوحدات إذا كان فيها موقف خارج إطار الموقف المتفق عليه في الاتحاد، ولكنها لا تستطيع منع أنصار التيارات المختلفة، بما في ذلك تيارا فتح، من إصدار نشرات باسم التيارات.

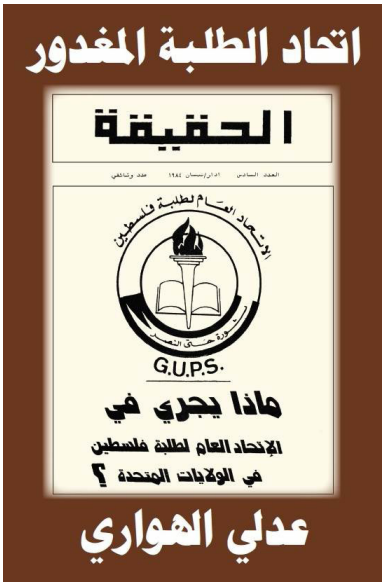

وقد ذكرت في فصول سابقة مجلات مثل «فلسطيننا» و«فلسطين الديمقراطية» و«فلسطين» تصدر عن تيارات مختلفة، ويعبر فيها عن آراء قد تتشابه مع رأي الاتحاد أحيانا، ولكنها أيضا، وربما في العدد نفسه، تعبر عن رأي لا علاقة للاتحاد به. وصدور «الحقيقة» يأتي في هذا السياق، أي أنها تعبر عن رأي حجبه ليس ضمن صلاحيات الهيئة الإدارية، فهي لا تصدر عن وحدة من وحدات الاتحاد.

وقالت رسالة الهيئة التنفيذية إن الهيئة الإدارية صادرت الكثير من صلاحيات الوحدات، ولكنها في الرسالة نفسها صادرت كل صلاحيات الهيئة الإدارية، وحجزت لنفسها مسبقا دورا تنفيذيا سمته «العمل ميدانيا لإزالة جميع العقبات أمام نشاط وفعالية الفرع»، علما بأن أكبر عقبة تمثلت في الهيئة التنفيذية وتدخلها غير المشروع في عمل الاتحاد في الولايات المتحدة.

«عـود الـنـد» فـي سـطـور

- صدر العدد الأول من مجلة «عـود الـنـد» الثقافية مطلع شهر حزيران (يونيو) 2006. وصدرت شهريا عشر سنوات مـتـتـالـيـة.
- حصلت «عـود الـنـد» من المكتبة البريطانية على رقم التصنيف الدولي للدوريات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2007. الرقم الخاص بـ«عـود الـنـد» هو: ISSN 1756-4212
- شارك في «عـود الـنـد» كاتبات وكتاب محترفون ومبتدئون من الدول العربية والمهجر.
- بعد اتمام العام العاشر، وصدور 120 عددا شهريا، تقرر تحويل المجلة إلى فصلية.
- ناشر المجلة د. عدلي الهواري. له كتب بالإنجليزية، والعربية، من بينها:
- **الديمقراطية والإسلام في الأردن؛ بيروت 1982: اليوم «ي»؛ اتحاد الطلبة المغدور؛ غسّان يبتسم؛ كلمات عـود الـنـد.**

www.oudnad.net